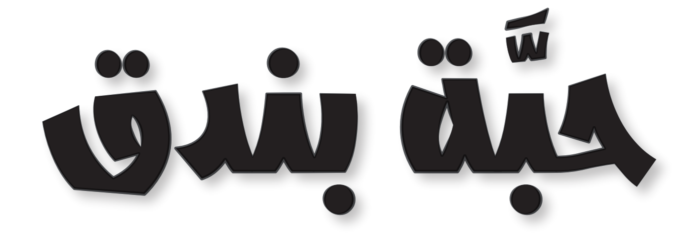

حبَّة بندق
حنين بوظو
مدونة أبو عبدو
أبو عبدو البغل



حبّة بندق
حنين بوظو

حنين بوظو



دار حنين بوظو للنشر، لندن، المملكة المتحدة

الطبعة الأولى: أبريل، 2018

الطبعة الثانية: أبريل، 2020

حبّة بندق

Designed by: Ammar Hreib, ammar.hreib@gmail.com

ISBN: 978-1-9993758-0-5

حنين بوظو

www.haneenbouzo.com

haneen.bouzo@icloud.com

hanin.bouzo

@haneen_bouzo

الناشر:

دار حنين بوظو للنشر، لندن، المملكة المتحدة

HANEEN BOUZO PUBLISHING LLP, Partnership No. OC419541

العنوان:

Old Gloucester Street, London, United Kingdom, WC1N 3AX 27

تقديم

تقديم

لقد أصبحنا خيوطاً تحركها أيادٍ مجهولة غير مرئية.. وباتت أعصابنا مشدودة كقوس مهيأ في كل لحظة لإطلاق سهامه في اتجاهات متعددة غير محددة الهدف نظرا لتشابك الخيوط..

كتابي الأول هذا ،يكتب عن أوجاع وطن مسكون بالقهر داخل كل مغترب خرج قسرا من بلاده، بأوامر آتية من قاعه.. قاع سكب فيه حزن مصهور ببراكين غضب موزعة بين الاستنكار والحزن والصمت واللاجدوى..

كثيرون منا من هاجم وقتل.. وكثيرون منا كان باستطاعتهم الهجوم ورفضوا ذلك.. وكثيرون منا اختاروا أشكالا متعددة للرحيل.. رحيل عن الوطن.. رحيل داخل الوطن.. رحيل يتربص فريسة فرصة.. ورحيل يحتمي بعدوه ريثما تحين فرصة الانقضاض كلا منهم على الآخر.. والشجاع منا من رحل إلى ذاته لينقذها من خضم الحاصل ويقتنص الفرص المناسبة لربح نفسه في عالم أصبحت فيه الإنسانية سوق للبورصة تصعد فيه أسهم الإنسانية وتهبط دون أن يتوقف مؤشر قرارات القوى العالمية على موقف ثابت ومحدد.

تسعة قصص هي المجموعة الأولى، التي كتبتها بعدما خرجت من بلدي نازفة بالوجع.. أحمل هموم دمشق على ظهري المثقل بالآلام والصبر والصمت.. بعدما عجز صراخي عن مناشدتهم بالتوقف عن قتل بعضهم البعض.. أخفيت في ذاكرتي صورا وأشلاء تناثرت على الحيطان وكنت شاهدة حية على قتل قابيل لأخيه هابيل.. بعينان ترسلان دهشتهما لسفح قاسيون الذي تساقطت منه أحجار ارتطمت فوق رأسي حين تعثر في الكهف ليداري سوءة فعله.. والغراب ينظر إلى الجميع مستهزئاً يحاول مداراة ما حصل، حين اقتنع بأن لا جدوى من العقل حين تسيطر عليه الرغبات والشهوات.. نزفت كثيراً ولم يسعفني أحد.. وصرخت كثيراً.. ولم يسمعني أحد.. فقد كان الجميع يصرخ وفي ذلك الضجيج الذي لم يجد صوتك فيه مكان في زحام الأصوات.. كان لا

بد من الرحيل وجر ذيول الخيبة، والعتاب بصمت.. لا بد من الرحيل.. كي أكتفي ببقايا صور جميلة علقت بذاكرتي في أسواق دمشق وحاراتها وحماماتها وقصورها ومساجدها وكنائسها، وكنسها ورائحة التوابل في البزورية.. ومقام الشيخ محي الدين حين كان أهل الخير يوزعون الطعام على الفقراء.. والمشي خلف الجامع الأموي باتجاه القيمرية التي أنشأت وقف للقطط الشاردة قبل أن تفعل ذلك أوروبا.. والتبارك بالدراويش أمام مقام سيدي السروجي في الشاغور.. وصولا إلى دير صيدنايا والشيروبيم، لاضاءة شموع نذر ما.. قبل العودة لكنيس جوبر أقدم كنيس في التاريخ.

قبل الرحيل.. حفرت أمام قبر أمي حفرة دفنت فيها دموعي المرسوم داخل كل دمعة منها، أجمل صور لدمشق وأهلت فوقهم تراب قهري ورحلت مودعة دمشق للمرة الأخيرة..

ما الذي كنت أملكه؟ لا شيء سوى تذكرة الطائرة وجيوب فارغة سرقوها أمام عيني مثلما سرقوا مورد رزقي وبيتي الذي لم أحزن عليه بالحجم الذي حزنت فيه على حرماني من صورة أمي، التي كانت معلقة على الجدار في الصالون.. لماذا رفضوا اعطائي اياها لا أدري.. ربما لأنها صورة تحكي عن امرأة ترفل بثياب العز والحسب والنسب.. وتاريخها ربما شكل ماض مقلق لهم حين فشل المعنيون في ذلك الوقت من اغتيالها.. أو ربما أرقهم صوتها حين كانت تصرخ مع ثريا الحافظ وبقية النساء اللواتي كن رافضات للظلم؟ لا أدري. لكن مأدريه هو أن ملفات الصادقين تؤرشف بحرص في أقبية السياف.

سلبوا مني كل ما أملك.. ولم يتركوا لي الا خيارين.. اما الموت أو الرحيل..

والموت في بلدي لا يأخذ كله شكل الموت الأبدي أي انتهاء الحياة بشكل ما.. فللموت أشكال متعددة هناك.. كالموت جوعاً.. والموت بالعيش.. والموت بالذل.. والموت باستجداء الموت الحقيقي.. وأنا اخترت الرحيل ولو بقيت هناك؛ لما كان بمقدوري تقديم هذا الكتاب لك.. ولم يكن بمقدوري الانتهاء قريباً من رواية بعنوان نعش دمشق.







خورفكان

خائفة أنا مني.. أكاد لا أعرفني.. خائفة من تلك الشراسة التي اقتحمت مغاور روحي دون سابق إنذار حتى بت عاجزة عن رصد انفعالاتي وعاجزة عن التحكم بنزقي وعصبيتي لأتفه الأسباب.. أين تلك الوداعة التي كانت تسكنني قبل عام من الآن.. تغيرت أفكاري.. طريقتي في تعاطي الأمور استبدلت مكانها فلسفات من نوع آخر.. فلسفتي في الحياة تغير اتجاه بوصلتها.. مناداتي بالحريات على المنابر خفت صوتها.. دعواتي للمساواة مع الرجل خف وهج بريقها.. من أنا؟ وماذا حل بأفكاري.. أنا النهمة للكتب مذ كان عمري ست سنوات وحتى تخرجي من الجامعة، ومازلت إلى الآن ألتهم الحروف مثل متسول جائع لا يستطيع تمالك نفسه أمام وجبات شهية على مائدة سلطان.. قرأت من الكتب ما يكفي بحجم مساحة هذا الكون ثم عدت لنقطة البداية كأمية تجهل فك الحروف.. وجاهلة بما يتعلق بصنع القرار.. بل وجاهزة لسلب كل قرار ينادي بحرية المرأة.

أنا الهاربة من ضوضاء مدينة تشبه صبية متمردة.. فاتنة كامرأة ساحرة هاربة من العصور الوسطى.. أسطورة من التناقضات العجيبة تبتسم لها مدينة اسمها دبي.. هاربة منها في إجازة منحتها لنفسي من الموظفين والعملاء والشركة والمولات والمنتجعات وأعشية الأعمال والاجتماعات.. هاربة من دفاتر شيكات و هواتف محمولة ومن ساعة زمنية تلدغ بعقاربها نبض مشاعري وذكرياتي.. مهمتها فقط تذكيري بواجبات علي القيام بها.. لا التذكير بموعد حب.. هاربة من كل ما يمكن أن يصلني بذلك العالم إلى عالم بكر اخترته كبقعة نائية اكتشفتها ذات مساء حزين منذ عام قبل الآن حين قدت سيارتي

باحثة عن حاسة سادسة تختلف عن حواسي الخمس المعروفة.. حاسة البراءة الأولى لكل شيء.. كل شيء.. وكان شاطئ خورفكان

هناك أمام بحر خورفكان أمسكت بالمرأة الأخرى التي تسكنني وجررتها من يدها وجلسنا أمام الرصيف البحري المتلألئة أضواؤه السابحة في فيروز الشاطئ بعيداً عن ضوضاء المدينة.. هناك ألقيت شباكي لأطارد السمك الملون.. فاصطادتني الذكريات وخرج من البحر طليقي وطفليّ مبللين بالتعب والهم.. زوجي وطفليّ الذين ضيعتهم في غمرة أعمالي وازدحام قاعي المليء بالرجال والأعمال والأسرار.

لم يصادف مرة في حياتي أن انتابني هذا الشعور بالخوف مع سقوط المطر.. كان الشتاء بالنسبة لي رداء يغطيني من خوفي وقلقي وتوتري.. ويجعلني أكثر أماناً وهدوءاً.. ما الذي حصل بعدما كبرت وتزوجت وفشلت في الاحتفاظ بأولادي الذين لفظتهم مثلما تلفظ قطة أولادها حين يكبرون..

- لكن أولادك مازالوا صغاراً.. تجيبني المرأة الأخرى التي تتقمصني.. وهم بحاجة لك أكثر من أي وقت مضى خاصة بعد طلاقك من خالد الذي لم يكفّ يوماً عن ضربك وإهانتك رغم كل المحاولات التي أبديتها للصلح ولإيجاد صيغة تفاهم بينكما وعقد أخلاقي و إنساني بأنه لن يكرر أذيتك..

أجيبها..

كنت أعلم في قرارة نفسي أنه يكذب.. وأنه لن يستطيع الاستمتاع بي حين لا يراني كتلة بشرية مكومة أمامه تستجديه أن يتوقف عن ضربها.. أعلم أنه أحبني وما زال.. ولا أعترف كثيراً أو أصدق ما أقرأه بأن من يحب لايمكن له أذية الطرف الآخر الذي يحبه.. فالحب بالنسبة لي يتخذ أشكالاً عدة تختلف من رجل لآخر.. فهناك رجال يحبون بجيوبهم.. وهناك من يحبون بعقولهم.. وهناك من يحبون بقلوبهم.. وهناك من يحبون بالطريقة التي أحبني بها خالد.. كنت أعلم بأنه ليس سادياً.. أي

أن ضربه لي لم تكن الغاية منه الاستمتاع بممارسة الجنس.. فمثل هؤلاء تنقصهم الشجاعة والثقة بالنفس للتعويض عن خذلانهم بالفحولة أمام المرأة.. وخالد لم يكن ينقصه ذلك كله..

إذن، لماذا لم يكفّ عن ضربي؟.. لماذا يحاول دائماً الحدّ من طموحي وأحلامي حتى لو كانت الأحلام مشتركة لعائلتنا.. لماذا كان يحاول دائماً اللحاق بي كلما قررت الرحيل.. لماذا كان يرفض تطليقي رغم أني وعدته بأني سأتنازل له عن كل شيء.. لماذا كان يرفض تصديقي رغم أني لم أكذب عليه يوماً.. لماذا كان يعتبرني فعلاً ناقصاً عنده.. ثم ترينه يتحدث عني أمام الجميع وكأني أسطورة هاربة من عصور ذهبية.. لماذا يدافع عني أمام الجميع.. وأمام نفسه يضعني على منصة حكمه التي لم يصدر منها يوماً صك براءتي أو الإعجاب بما أفعله.. لماذا يعاقبني دائماً على أني مذنبة بأخطاء أعلم تماماً بأنه يعلم أني لم أقترفها يوماً.. لماذا يهزأ مما أقوله وأنت تعلمين بأنه معجب بكلامي ويثني عليه بداخله.. لماذا يطلب مني الحوار وحين أبدأ به يسكتني معلناً بأن ما سأتكلم به هو يعرفه مسبقاً ولا يعجبه.. لماذا كان ينتقد ذوقي باللباس والماكياج والعطور وحتى بألعاب أطفالنا.. ثم بعد ذلك كله يحاسبني على صمتي.

اسألي نفسك يا من ترسمين مئات إشارات الاستفهام وتعلقينها على جدران توترك وعجزك عن الإجابات.

ضحكت المرأة التي تسكنني مندهشة..

أنا؟؟ ماذنبي حتى أسأل نفسي عما عجزت عن إيجاد حل له.. هل ستنكرين لو أجبتك بأنك كنت تكذبين على القاضي حين سألك ماهي الدوافع التي جعلتك تطلبين الانفصال.. وجاوبته بأن السبب هو الضرب؟.. أعلم بأنها المرة الأولى التي كنت تكذبين بها بصدق على الرغم من الألم الجسدي الذي كنت تشعرين به.. لكنك تعلمين بأن هذا السبب سيعجل من انفصالكما.. وما هذا الألم إلا سعادة كنت تخفين فيها تشفياً من نفسك وأنت تعلمين بأن الضرب ليس

السبب الرئيسي للطلاق.. هل تنكرين بأنك بينك وبين نفسك لم يكن الضرب بالنسبة لك حاجزاً أمام رجل كنت تعشقينه؟.. أيضاً لم تعترفي بذلك كي تتحاشي العيون الفضولية ولتختصري إشارات التعجب المصوبة اتجاه متمردة لطالما طالبت باستقلال المرأة وتحررها من القيود التي تكبلها.. وتعلمين تماماً أن داخلك يعترف بأنك أنت من كان يقوم باستفزازه لضربك!.. زوجك لم يكن يوماً رجلاً سيئاً.. ولا خائناً.. ولا متعصباً ولا متناقضاً.. لكنه رفض فكرة الاختلاط مع الرجال خارج دائرة العمل الوظيفي وهذا من حقه، كشرقي غيور.. حاول جاهداً الاحتفاظ بك.. ورجاؤه دوماً أن تقبلي بالقليل من المال الذي يملكه.. ولم يبخل يوماً بالحب الذي كان يسكبه عليك بسخاء كماء ياسمين حولته بعنادك وحبك للجاه إلى ماء نار أحرقت بها نفسك وأحرقته معك.. خالد لم يحد يوماً من طموحك.. بل كان يثني عليه.. هو حاول الحد من اندفاعك أحياناً لدرجة التهور.. فهو يرى أن للسلم درجات نبدؤها بخطوة حذرة هادئة، متخذين جميع التدابير تلافياً لأخطاء محتملة.. وأنت كنت ترين نظريته ناتجة عن تقاعس وخمول ساخرة منه بقولك.... أعطنا خبزنا كفاف يومنا!

نظرات استنكار تحولت بها عيناي لعيني بومة قائلة..

مريضة أنا إذن؟ كما قال لي ذات مرة وبأني بحاجة لطبيب؟ مريضة؟ ربما..؟ ثم تسائلت.. هل هو الاهتمام؟.. هل حاجتي للأمان؟

أجيبني مندهشة.. .. للأمان؟ كيف وأنت من يستفزه لينهال عليك ضرباً.. نعم.. أنت من يفعل ذلك كي تحمليه مسؤولية أخطاء ترتكبينها بحقه وحق أطفالك.. لكنك تحاولين محوها بمعاقبتك بيده هو، كي تهربي من مسؤولية ماتفعلين.. والطريقة المثلى بالنسبة لك هي الضرب كي توهمي من حولك بأنك الطرف الأضعف والمظلوم.. وكي تبعدي عن دربك الاعتذار الذي تكرهينه

سألت بهدوء.. لماذا أقوم باقتراف الأخطاء.. لماذا لم أتفاداها.. لماذا

لم أسمح لذلك القارب السير بهدوء بدلاً من توجيهه ناحية المنحدر؟

أجبتني مبتسمة..

ببساطة لأنك لا تنعمين بالسلام داخلك.. لأنك غير قادرة على تنظيم الفوضى التي خلفتها طفولتك.

أزيح الشاطئ بعيني قائلة باستهزاء..

كفى ترهات ماهذا الكلام الفارغ، وهذا الهروب من الأسئلة التي نعجز عن الإجابة عنها لنلقي بملفها الغامض لطبيب نفسي لا يسعه إلا العودة لنقطة الطفولة كي يخفي فشله وعجزه عن تشخيص الحالة التي أمامه.. لكسب مزيد من النقود وهدراً للوقت.

وقت!؟ أسألني وأنا غير مصدقة ما أسمع. أي وقت؟.. ماذا فعلت بحياتك إلا حساب الوقت، والخوف منه حين يهرب، ولم تنفذي عملاً ما.

إذن هو المال؟

المال... أصمت وأنغلق على نفسي مثل قوقعة بحرية تزحف ببطء ناحية شاطئ مهجور متجاهلة بأن هناك دوماً من يترصد للأشياء مهما كانت رخوة وضعيفة وصغيرة..

سكبت ذاتي سؤالاً في أذني بصوت يشبه فحيح أفعى.

إنه الفراغ..

أجبت متجنبة سم تلك الكلمة.. محاولة إخفاءها في طيات قلبي كجدول مؤجل لأعمال مهمة..

أي فراغ وأيامي ممتلئة بالعمل والإنتاج؟ حتى أني أشعر لأيام بأني نائمة وأنا أتحدث واقفة.

إذا هو الزواج.. تقولها كمن وجد حلاً للغز طال البحث عنه.

الزواج؟؟ ماذا تهذين بالله عليك.. لقد عشت مع خالد أجمل لحظات حياتي.. كنا سعيدين لدرجة أننا انصهرنا وكنا كتلة واحدة.

تضحك ذاتي بمرارة وترفع يداها قائلة..

ومن شدة حبنا لبعضنا البعض... صار يشبهني وأشبهه بالملامح.. لقد تخلى عن كل شيء لأجلي.. وأنا فعلت الشيء ذاته.. وزواجنا كان حكاية الدنيا كلها..

ربما كان هذا السبب.. تقولها ذاتي واثقة..

أجيبها بصوت حذر... ماذا تقصدين؟

أقصد بأن زواجك هو السبب.. سأشرح لك.. لقد عشت قصة حب عاصفة.. كنت فيها حديث الجميع.. هذا الحب ورفض أهله لك شكّل عندك نوعاً من التحدي، ورفضهم لك لم تتحمله امرأة مثلك معتدة بنفسها.. لذلك جاء رفضهم بمثابة ضربة موجعة، مست أغلى ماتملكين.. وهي كرامتك.. وقتها لم تعط الفرصة لعقلك بالتفكير بأي شيء إلا بانتصارك عليهم.. وأخذ ابنهم لقاضي الشرع بدلاً من الانزواء قليلاً مع نفسك لاتخاذ قرارات مهمة وحاسمة تجعلك تنظرين بشفافية أكثر لمستقبل لم تحددي به أي شيء، إلا الفوز بخالد وإعلان انتصارك عليهم.. كان الغيظ يقتلك.. ولم تفكري إلا بالانتقام منهم.. وتزوجت.. ومضت الأيام الأولى رائعة.. وكذلك الأشهر الأولى.. وكانت الفرحة عارمة حين أنجبت طفلك الأول.. ثم بدأت حياتك تغير مسارها كالنهر.. وبدأت المسؤوليات تكبر.. وبدأت تهملين نفسك ظنا منك أنك تعاقبينه لسبب حتى هو لايعلم به.. اتخذت حياتكما شكلاً مغايراً تماماً بعد الطفل الثاني.. أصبحت أكثر شراسة بدلاً من أن تصقلك الأمومة وتجعل منك امرأة أكثر لطفاً.. وهدوءاً.. تحول النهر بمساره.. وصب في بحر يعتليه موج لا يمكنك ركوبه.. هذا الموج سيطر على الهدوء في جزيرة نائية، عن الأهل والأصدقاء.. حاولت أخذ زوجك حتى من أقرب الناس إليه رافضة إنهاء الحرب التي ابتدؤوها حين رفضوك أول مرة.. كما أنك رفضت أي اعتدال داخلك.. لقد تطرفت بالمغالاة لهذا العشق أو ماتوهمته عشقاً..

قاطعتها مندهشة قبل أن تكمل جملتها.. هل ماسمعته صحيح؟

متوهمة أنه عشق؟

أجابتني ذاتي بهدوء

أجل.... في الواقع أنت لم تحبي خالد يوماً.. أنت أحببت حبه لك.. أحببت اهتمامه بك.. لذلك ازددت شراسة حين تحول من عاشق لايرى غيرك.. إلى أب واعٍ لمسؤولياته وأنت واحدة منها.. لكنك لست كل شيء مثلما كنتما عاشقين..

لست مقتنعة بوجهة نظرك.. لأني مؤمنة بأن العادة والعشرة هما أصعب من الحب نفسه.. كل شيء في حياتنا مهما كان صعباً سيتحول مع مرور الوقت إلى عادة.. كذلك الفراق.

صرخت بعصبية وحنق كأعمى حشر في زاوية..

لماذا تريدين النيل مني.. لماذا تحاولين كسر أجدافي في وسط بحر لا أجيد السباحة فيه.. هاقد وصلت لما حلمت به، ولولا تمردي على حياتي معه، لكنا الآن كغيرنا من الموظفين نعلن النفير العام أول خمسة أيام بعد قبض الراتب.

انتصارك في العيش وحيدة هو أكبر هزيمة حين تخسرين عائلة.. غرورك وصراخك وتمردك قضوا عليك حين غاب عن تفكيرك أن الرجل لا يهزمه إلا أخلاق المرأة لا رعونتها.. كل ما كنت تريدينه هو إطلاق ساقيك للريح.. بمعنى أدق.. للهروب.. فحينما تشعرين بالملل تهربين.. وحين تثقل الواجبات تهربين.. وحين تنزعجين من أحد تهربين.. هذه نزعتك.. نزعة الميل لنفسك وحدها لقد ضيعت نفسك بين السيطرة على الأشياء وبين الحصول عليها، بطرق حسبت حساباً لتعبها.. ونسيت أن هنالك فرق بين السيطرة على الأشياء وبين فهمها وبين تغييرها.. ولذلك كنت دوماً تهربين.. لأنك غير قادرة على مواجهة الأشياء خشية تحمل مسؤولياتها.. لكن مع الأسف حين أطلقت ساقيك للهروب آخر مرة.. كانت طريقة هروبك سيئة.

أمسكت برأسي بيدين متعبتين.. مغمضة عيني، والموج يتلاطم

على الشاطئ، ويتلاطم معه قلبي الذي يركب موجاً عالياً دون أدوات نجاة.. يتكسر صمتي على الصخور.. صارخاً بوجع.

أنا سمسارة.. عرضت الحزن على حياتي ثمناً لأنانيتي.. سمسارة نجحت في بيع الجنة كي أحظى بجهنم المال، وكرسي دوار في شركة كبيرة واسماً لامعاً في المجتمع.. سمسارة، حققت كل ما كنت أصبو إليه وكان الثمن زوج وطفلين.. وامرأة مهزومة بالحرية!

أتمدد على الشاطئ، ثملة بدغدغة الموج الذي يجيئ وينهزم عن قدماي .. القمر مرسلاً شعاع ضيائه.. وأنا موزعة بين السماء والبحر صدفة على شاطئ سيجته بحب، وكأننا وحدنا في هذا الكون الفسيح.

تطوف خواطري مرسلة أفكارها إلى المدى اللامتناهي الخرافي الجمال.. أتنهد زفرات موج، متحولة في فمي لفقاعات ملونة تحكي قصة امرأة قررت في لحظة قوة ترك كل ما تملك لقاء ارتمائها في حضن رجل قادر على حمايتها من نفسها.. رجل عاشق يحتويها كرعشة غصن بعد أول سقوط للمطر.. رجل.. ترتمي على صدره وتنتحب ملقية ثقل تعب أيامها عليه لتهنأ بالنوم مرة أخيرة بسلام..

هل أخطأت التقدير حين قررت كسر ما توهمته قيود كبلت حريتي؟ هل تتنافى إنسانية المرأة مع صليل جنازير، حلقاتها مؤلفة من بيت وعائلة؟ هل حقاً كان عصر الحريم عصراً ذليلاً لها، أم عصراً استثنائياً حافظ به الرجال على مكانة المرأة، وجعلها ملكة مدللة ولها حرمة مقدسة عند الزوج والأبناء وكانت أماً لها مكانتها الوقورة التي لا يجرؤ أحد على تجاوز الخطوط الحمراء معها، كائناً من كان؟ لماذا أنا خائفة من الاعتراف بأن عصر الحريم هو من أجمل العصور الذهبية للمرأة.. وبأن المرأة كانت تساعد برسم خطط الحروب، وتحيك المؤامرات وتعزل وزراء، وتنصب أمراء من غير أن تبرح مخدعها؟ ولماذا نرفض نحن النساء الاعتراف بيننا وبين أنفسنا، بأننا حتى اليوم ننظر لهن

بعين الحسد، ونشتري الكتب والصور التي تتحدث عنهن مدعيات بكبرياء كاذب أننا متبرآت منهن.. بينما الحقيقة، أننا نقضم أظافرنا غيرة ثم نشحذها كمخالب في وجه من يشبّهنا بالمحظيات.. أولسنا محظيات بالفعل وحريم للسلطان؟ أولسنا نخلع عنا في مخدع الزوجية رداء أقنعتنا وشهاداتنا الجامعية، ونقدم أوراق اعتمادنا على أسرة فوارسنا ونفعل كل ماهو ممكن لارضائهم مقابل كلمة أنت مبهرة؟

ماذا قدمنا نحن النساء للحرية غير حواجز إضافية وعقبات تحول دون التمتع بحرياتنا، نتيجة سوء استخدامنا لها.. فأصبحت غزارة الإنتاج تبحث عن سوق للتصريف في سوق الزواج الكاسد، نتيجة فهم الحرية بطريقة مغايرة تماماً لحرية خرجت عن فضيلتها.. وصار استفزاز الرجل من أولويات اهتماماتها.. ومعاملتها له معاملة الند للند، ما نتج عنه نقصاً من احترامه لها.. لأنه ببساطة هو لا يريد الزواج بشبه امرأة.. أو امرأة مسترجلة.. مالذي يتبقى من الحب حين يغيب عنه احترام المرأة لأنوثتها.. واحترامها للرجل احتراماً وتقديراً نابعاً عن تلك الأنوثة.

وما الذي حققناه حين حفرنا قبراً، وألقينا فيه سامية التقاليد ووقورها.. وكأننا بذلك نرفض قبول الجد والجدة باعتبارهم تقاليد؟ ماذا تعني الحرية حين تنسلخ عن جمال التقاليد المتصلة بالترابط والإيثار والكثير من الأشياء الجميلة التي كبرت معنا.

هل حققتُ أنا امرأة القرن الواحد والعشرين، ما رسمت وخططت له أحلامي معتقدة بأن التحرر هو الطريق المفروش بالورد، بينما هو في الواقع برك ساكنة، ومستنقع تطفو على سطحه أزهار اللوتس الجميلة؟

كل يوم أعود منهكة وحيدة، بعد الانتهاء من الاجتماعات وتوقيع العقود والاحتفال بالصفقات التي رسى أغلبها على شركتنا.. أعود وأنا متخمة بكلمات الإطراء والإعجاب التي يثني بها الرجال على عقلي وقدراتي وذكائي وقوة شخصيتي.. وجائعة لاستقبال زوج أفتح

لـه بـاب البيـت وأسـتقبله بعـد عودتـه مـن العمـل أنـا وأطفالـي.. جائعـة لكلمـة حـب تطـري جمالـي وأنوثتـي.. ويدان تلمسـان جسـدي المنحـوت بعمليـات التجميـل التـي أنفقـت عليهـا آلاف الآلاف مـن الـدولارت لتذكيرهـم، بأنـي أنثـى تحتـاج أيضـاً لمـن يثنـي علـى أنوثتهـا مثلمـا يثنـون علـى عقلهـا.. نعـم أنفقـت الكثيـر مـن الأمـوال علـى التجميـل والشـد والنفـخ.. لكنـي حظيـت بهـم عنـد خالـد عندمـا كان يقـوم بشـد ترهلاتـي النفسـية بالمجـان.. وقـص مايؤذي أعصابـي بالمجـان.. وتدليـك جسـدي مساء عنـد انتهائـي مـن أعمـال المنـزل.. مبتسـماً بحـب للـوزن الزائـد الـذي اكتسـبته بعـد ولادة طفلـي الثانـي.. دون أن يعتـرض.. بـل كان يقـول لـي حيـن يرانـي أمـام المـرآة عابسـة..

حبيبتـي أنـا لسـت بحاجـة لعارضـة أزيـاء.. يكفينـي منـك حيـن أغمـض عينـي وأسـرح مـع جمـال روحـك لا جسـدك.. أعشـقك بـكل الحـالات فأنـت قـدري الـذي أرسـلته السـماء إلي مكافـأة أعيشـها إحساسـاً مفعمـاً بالحياة والأمـل.. لا صـورة مؤقتـة، أضعهـا علـى بروفايـل صفحتـي الفيسـبوكية.. أنـت حالـة دائمـة وعشـق مسـتمر لـن يقـدر عليـه وزن زائـد ولا تجاعيـد.

أرتعـش بـرداً مـع نسـمات الفجـر المرسـل أشـعته، المتراقصـة علـى صفحـات المـوج أشـعة كسـولة تتثـاءب كفتـاة مدللـة.. سلطعونات بريئـة تسـرع كأنهـا تنبهنـي للوقـت وطـردي مـن هـذه الخلـوة التـي أصبحـت ملكهـا الآن.

يفتـح لـي البـواب بـاب القصـر، مكـرراً الكلمـات نفسـها المجبـر علـى ترديدهـا كسـباً للـود والمـال.. يدعـو لـي بالـرزق وطـول العمـر، وحيـن ينتهـي مـن أداء الديباجـة نفسـها التـي لـم تـزد ولـم تنقـص منـذ سـنوات..

يعـود لزوجتـه وأطفالـه فـي الغرفـة الصغيـرة الدافئـة بالحـب.. وأدخـل بـدوري قصـري المفروشـة أركانـه حماقـات وثيـرة، اشـتريتها حيـن عملـت سمسـارة، وعرضـت جنتـي للبيـع، وكان الثمـن زوج وطفليـن.. وحريـة امـرأة مهزومـة.

خيوط القدر



خيوط القدر

كل ما في هذا القصر، من تحف ثمينة.. ولوحات نادرة.. وثريات مرصعة وستائر باهظة الثمن.. وسجاجيد مزركشة.. وحمامات ذات مياه ملونة وأحواض اغتسال زجاجية.. وخدم يحاولون إرضائي جاهدين.. لاينتمي إلي.. لايشبهني.. لا أشعر بالقدرة على التواصل معه رغم مرور أربع سنوات على زواجي من عدنان بيك، الرجل الثري حديث النعمة الذي رمى بأبيه في مصح عقلي بعد أن اتهمه بالجنون، وقام بتزوير أوراق البيت العربي الكبير ليحتفظ وحده بملكيته، ثم قام ببيعه لسمسار بيوت يقوم على تحويل هذه الأملاك إلى فنادق ومطاعم، والذي بدوره طرد شقيقتّي عدنان خارجه.. شقيقتاه اللتان لايعرف أحد عنهما شيئاً حتى الآن..

أربع سنوات لم تستطع تغيير المعادلة التي كانت تكبر فجوتها كل يوم، بكرهي له واشمئزازي، ونفوري منه.. أربع سنوات وحيطان هذا القصر تزداد برودةً وصقيعاً، يأكل عظام دمية يحركها زوجها حسب أوامره.. ويقيس على حنجرتها ضبط إيقاع صوتها، وتردداته انخفاضاً وارتفاعاً... وكأن صوتها إبرة مذياع قديم، يحركه على مؤشر الموجة المناسبة لترددات مزاجه..

ربما لم يزعجني كثيراً تلقي الأوامر، فهذا أمر ليس بالغريب عني.. فأبي كان أيضاً رجلاً شرساً ظالماً.. لايكف عن التهكم على أمي، وإذلالها بل وحتى ضربها حين تلعب الخمرة برأسه.. أو حين تطرده عشيقاته... ومن هن؟... نساء يرتعن في شوارع المدينة باحثات عن صيد ثمين في سيارة فارهة يجهلن أنها ملك لعدنان بيك الذي كان أبي سائقاً عنده.

كانت أمي تعلم بذلك كله.. لكنها لم تجرؤ يوماً على التفوه بحرف.. فلطالما تحملت الكثير من الضرب والإهانة والتجريح.. إلى أن كانت تلك

الليلـة التـي لـا تغيـب عـن ذاكرتـي، حيـن ركلهـا واتهمهـا بالبليـدة البـاردة كلـوح ثلـج لايـذوب، وأنهـا قـد قتلـت مشـاعره وعواطفـه تجاههـا.. أذكـر تماماً كيف انتفضت أمـي، وصرخـت كصقر جريح أصابه سـهم فـي إحـدى عينيـه... قائلـة

عـن أية مشاعر تتحـدث؟ وأية أحاسيس تعنـي؟ وأنت لاتزورني فـي الفـراش إلا اذا كنـت مفلسـاً غيـر قـادر علـى دفـع المـال لعشـيقات المرسيدس.. أيـة مشـاعر تحملهـا جيفـة مثلـك، لـا تعـرف مـن مفـردات الـكلام، إلا السـم الزعـاف الـذي تلقيـه بأذنـي مسـتمتعاً بإهانتـي وانكسـاري وذلـي أمامـك.. أيـة مشـاعر تلـك وأنـت لـا تملـك منهـا ذرة مـن أمـان، أو عطـف أو حـرارة حـب يذيـب جليـداً صنعـه اسـتهتارك. ثـم عـن أي ثلـوج تتحـدث وأنـت شـتاء قـارس علـى طـول فصـول السـنة لـا يمـر بهـا، ربيـع كلمـات تدفـىء صقيـع حاجتـي لرجـل طالمـا بحثـت عنـه ولـم أجـده، إلا بيـن أحضـان عاهـرات.. وكل ظنـك انـك وقعـت صـك امتلاكـي، وقـررت وحـدك أننـي مجـرد مطيـة لـك ليـس لهـا مشـاعر ولـا تمتلـك أيـة أحاسيس.. مـاذا أبقيـت بـي حيـاً، إلا آلام الظهـر والمفاصـل التـي تسـببت بهـا ماكينـة حياكـة كانـت ملجئـي مـن الفقـر والحاجـة، لسـد مصاريـف بيـت لـا تدفـع منهـا إلا فواتيـر المـاء والكهربـاء، ولـا تكلـف نفسـك حتـى عنـاء الوقـوف فـي الطابـور لسـدادها..

يومهـا اختبـأتُ كفـأر مذعـور داخـل الخزانـة هربـاً منـه، وهـو يضربهـا كأنهـا عـدو اسـتولى علـى أرضـه ثـم تمكـن الأخيـر منـه.. لـم أسـتطع حينهـا انتشـالها مـن بيـن براثنـه.. كنـت يومهـا أصغـر مـن أن أواجـه، وأضعـف مـن أن أدافـع.. وكانـت تلـك آخـر مـرة سـمعت صـوت أمـي يصـرخ.. منـذ ذلـك الحيـن وكل منهمـا ينـام فـي غرفـة منفصلـة، تحولـت بعدهـا أمـي إلـى (دينامـو) لـا يهـدأ.. وكأن العمـل هـو السـبيل الوحيـد للقضـاء علـى مـرارة مـا تعيشـه..

أتبختـر بثوبـي القرمـزي الـذي يكشـف تفاصيـل جسـدي، دون عنـاء الشـرح.. هـذا بالتأكيـد يسـعد زوجـي القصيـر، صاحـب (الكـرش) الهـزاز بشـكل يثيـر

الاشمئزاز، والسخرية خاصة عندما أراه يتحرك بسرعة لا تليق بشكله الذي يشبه كرة سقطت ببركة وحل.. ابتساماتي اعتدت على رسمها جيداً، وتوزيعها كلاً بحسب ما يليق بمركزه ونفوذه، وقوته.

كتل من اللحم المكتنز، لنساء تتعالى أصوات ضحكاتهن لأتفه الأسباب.. وكأنهن يصدرنها بعلو مبالغ به، حتى لتظن أنهن ينفثن قهراً مكبوتاً غير قادرات على لملمته أو صفعه، إلا بلفت أنظار الرجال إليهن وإفراغ كل ما في جعبهن من غل وحقد، والبحث عما لا يدرينه.. هاهي عبير مثلاً، زوجة عفيف بيك لا تجد مناسبة إلا وتتحدث لصديقاتها عن آخر ماتوصل إليه الطب، ومع ذلك بقي عاجزاً أمام حالة زوجها الذي اقتنعت معه أخيراً أن لايمكن للعطار أن يصلح ما أفسد الدهر.. وتراها دائمة الحديث عن سائقها الذي يتمتع بإخلاص في العمل لا مثيل له.. ويتغامز الجميع كيف تحول هذا السائق بقدرة قادر، إلى مالك للبيت الذي كان يستأجره..

نساء تزين أعناقهن ملايين الدولارات، من الماس والأحجار الكريمة وما الشهادات الجامعية اللاتي حصلن عليها، إلا ديكور اجتماعي يضاف إلى هواياتهن.. فالشهادة بالنسبة لهن مجرد لوحة يتباهين بها لاتسمن ولا تغني من جوع.

عندما زفوني وسط دموع أمي الرافضة أبداً لهذا الزواج، الذي اعتَبَره أبي صفقة رابحة.. إذ قدم استقالته من العمل بناء على طلب عدنان بيك.. فمن غير اللائق أن يستمر والد زوجته في العمل كسائق عنده، واقترح عليه افتتاح مكتب للاستثمارات العقارية، من مهري المقبوض كي لا يتسنى لي ذات يوم المطالبة بحقوقي إن تطاولت، وتمردت عليه.

ودعت يومها بدوري الثانوية العامة وصديقاتي، وكتبي وأحلامي.. لألتحق بموكب النساء التافهات اللاتي وظفن مشاعرهن وعقولهن لماركات عالمية، وكلاب مرفهة وسيارات فارهة.. وكأنهن ينتقمن من أنفسهن لأنهن عاجزات عن عمل أي شيء، إلا قتل الملل والروتين

بصرف المزيد من الأموال.. ولفت الأنظار لهن في المجلات (مدفوعة الأجر) التي تسارع لتصويرهن في دور الأيتام والمسنين، والجمعيات الخيرية، التي ما إن يخرجن منها حتى يسارعن للاستحمام بالمعقمات بعد أن تنتهي مهمة تعديل الصور.

ينقذني من سخف أحاديثهن، دخول همام بيك الذي يسبقه عطره الأخاذ، وابتسامته التي تكشف عن أسنان كأنها خرجت للتو من عيادة طبيب التجميل.. همام بيك الذي تشرف أمه على تربية ابنه ذو السنوات الست، بعد طلاقه لزوجته لأسباب مبهمة لا يعرفها أحد... ومع أن مدينتنا لا تخفي أخبار أحد عن أحد.. فللأغنياء الحق بإخفاء أخبارهم، وتخويف الآخرين من المساس أو الاقتراب منها.. همام بيك سليل الأسرة الدمشقية المعروفة والذي تتكلم المدينة عن أياديه البيضاء كما كان أبوه وجده.. كم يسعدني هذا الكلام حين أسمعه.. فقد ارتبطت صورة رجال المال والأعمال في بلدي للأسف، بكل ما هو ممنوع وحرام.. ولا ترى مساعدة الفقراء من أمثال تجار اصطياد الفرص إلا قبيل الانتخابات، والتي يحولون بها المحتاج إلى قرد راقص يمسك قبعة مدربه ويطوف بها على الناس طالباً إلقاء أسماءهم الموافقة والداعمة لفلان أو فلان.. مع أن أغلب هؤلاء الناس يدركون تماماً أن أسماءهم لا فائدة منها تحت ظل أشخاص يقومون بالتزوير في الغرف المغلقة.. لكن سياسات التجويع، لاتسمح للفرد أن يفكر إذا كانت بطنه فارغة، فالشبع يعطيه الحق بالتفكير بغير لقمة العيش.. فمن يملك المال يملك السلطة والجاه.. ومن هنا تبدأ حرب التنافس على مراكز القوة بينهم، بينما لا يملك الشعب إلا رمي أوراق اعتماد اسمه داخل تلك القبعة للحصول على وجبة عشاء، ومبلغ زهيد من المال وأكثرهم، لا يحصل على الاثنين..

يقترب مني همام بيك بعينين تفيضان استعلاءً وتواضعاً.. لهفةً وفضولاً.. ذكاء خبيثاً كنظرات الأطفال.. يسحب يده من يدي بكل تهذيب قائلاً:

• أنت مدهشة سيدتي!!!

أجبته بغرور... مبتسمة

• أعلم ذلك وكنت سأبدو سعيدة لو سمعتها أول مرة..

• لكنني أتحدى أي رجل قالها بهذا الصدق العميق، الذي أشعر به الآن..

أهوي إلى فراشي منهكة فقد كان يوماً متعباً للغاية.. وكما في كل ليلة عندما ينام الجميع تستيقظ أعماقي صارخة في وجه وحوش الزيف.. نازعة أقنعتي التي ارتديها لأحمي نفسي منهم.. فعندما أتشبه بهم، أكون قد قمت بحماية حدودي ودرء الخطر عني.. تسيح مساحيق التجميل على جدران قلبي، راسمة لوحة لدمية في حفلة تنكرية ترتدي بها زي الساحرة لتخفي ضعفها وقلة حيلتها، بمظهر مغاير تماماً لشخصيتها.. ضعفها الذي كشفت عنه نظرات همام بيك المتفحصة والمراوغة عندما همس بأذني:

«أحيانا نخفي ضعفنا الإنساني خلف ستار قوة، ثم لا نلبث أن نتعرى حين يظهر شخص يمنحنا ما فقدناه، فنسلم له مفاتيح أسرارنا ونفوضه حاكماً لأمرنا.. نفوضه بحكم العشق، لا بحكم ما تفرضه سيطرة هشاشتنا الداخلية وخوفنا، من أنفسنا نتيجة فعل مناخ تاريخي لازمتنا أمراضه، وحولناها لسيف نسلطه على رقاب من نتعايش معهم، لنخفي به أمراضنا الاجتماعية والنفسية..»

وعندما نظرت إليه مستغربة ما يقول.. ابتسم وأجاب.. «ستفهمين في الوقت المناسب عندما نلتقي قريباً..» وانسحب همام بيك بكل تهذيب مخلفاً وراءه ألف إشارة استفهام في عقلي...

سئمت قناعي الذي كلما حاولت نزعه نبت وراءه ألف قناع وقناع...

تمضي أيامي هباء منثوراً، وأنا لا أقوم إلا بالمجاملات التافهة وتوزيع الابتسامات، كممثلة يصر المخرج في كل مرة على إعطائها دور البلهاء

وكأن هذا الدور تقمصني، ولم أعد أصلح لغيره أو أنه لا يصلح لغيري.. وما الفرق ما دام الدور واحدا!!

مر أسبوع وأنا لا أفكر إلا فيما قاله لي همام بيك، في حفلة الخميس الماضي.. إشارات استفهام لاتجد أجوبة على أسئلة أرقتني بعد أن تركني متأرجحة على حبال لا تتقن امرأة مثلي اللعب عليها، ولم تكن ذات يوم إلا مراقبة للسيرك، دون التجرؤ حتى على التفكير بحركات أبطاله البهلوانية..

أفتح خزانة ملابسي لأختار ما سأرتديه الليلة، فلقد تمت دعوتنا أنا وزوجي وبعض الأصدقاء إلى قصر همام بيك.. وقع اختياري على ثوب بنفسجي.. ربما لأنني سمعته يقول لعبير، أن البنفسجي أحب الألوان إليه عندما سألته محاولة استدراجه بغباء، لمحادثتها.

تنطلق السيارة.. وزوجي لايكف عن الثرثرة طيلة الطريق الذي خلفنا وراءه ضجيج المدينة.. وها نحن نقترب من القصر الذي يتربع على تلة باهرة الأضواء.. وكأنه قصر هارب من قصور ألف ليلة وليلة.. نقترب من البوابة الخارجية التي تفتح أبوابها بعد أن سمحت لها كاميرات المراقبة بإدخالنا.. تستقبلنا حديقة مذهلة، تترنم على أطرافها أشجار السرو الباسقة، ونوافير المياه الملونة التي ترقص وتضبط إيقاعها على صوت الموسيقى المنبعثة من غابة خرافية الجمال، يتصدرها باب القصر الخشبي الذي يعيدنا لتاريخ أبواب بيوت دمشق العتيقة، وعلى جنبيه تمثالان لإله الحب كيوبيد، تصدر من سهميهما شعلتا نار كأنهما مصوبتان إلى قلبي..

بعد انتهاء العشاء والأحاديث المملة، وزوجي الذي بدأ يفقد توازنه كالعادة لإسرافه بالشراب، وعدم نسياني لمهمتي التي أوكل بها نفسي بقيادة السيارة في طريق العودة كي نتفادى الحوادث.. كما حصل ذات مرة وكنا، قد أنهينا غداءنا في أحد المطاعم وبقي مصراً على قيادة السيارة بنفسه، ولشدة إعجابه بشجرة (لا أدري يومها ما خطر بباله) رأيته ينعطف باتجاهها، وكان وراءها وادٍ عميق.. لا أعلم

يومها أي قوة دفعتني لأمساك المقود وأنحرفت به يساراً، ولولا معجزة أرسلتها السماء لكان حادثاً مميتاً لا محالة..

خرجت إلى حديقة القصر هاربة من الجو الخانق في الداخل.. سمعت صوت همام بيك خلفي يقول:

كأن أجواءً كهذه لا تناسب مزاجك.. أو أنها تناسب من هم أكبر منك سناً.. قالها وهو يضحك

• معك حق، إنها لاتعجبني لأنها لا تشبهني.. أنت تضحك، لكنني سأعترف لك بشيء.. أنا كبرت منذ أول يوم تزوجت به عدنان، ورغم تعايشنا إلا أنني لم أجد نفسي ذات يوم أنني مهيأة، لهذا النمط من العيش.. ولم أحاول يوماً أن أخوض في حديث الأعمال أو السياسة.. فأنا قد نشأت في بيئة فقيرة، وهذا أمر لا أخجل به، وتعلمت من أمي أن الكذب يمكن أن يكون منجياً لكنه لا يلبث أن يُكشف.. تعلمت منها أن الكذب خيانة لله ولأنفسنا.. ومن يكذب مرة يسهل عليه الكذب كل مرة.. والخيانة والسرقة يرتبطان بالكذب ويشكلون عائلة واحدة.. قالت لي يومها لا تستهيني بهذا الأمر، فعندما تسقطين بنظر نفسك لاتلومي الآخرين إن فعلوا حيالك ذات الشيء.. ثم أردفت قائلة، أنا لاأنكر أنني مذ تزوجت أصبحت أتحايل على الألفاظ وألعب بها، بطريقة تمكنني من إنقاذ نفسي في مجتمع أجبرت على مجاملته دون اقتناع.. ولم يستطع زوجي نقل عدوى القلق، الذي يلازمه طوال الوقت.. القلق الناتج من خوفه على نفسه.. عكسي أنا التي لاأبالي بشيء، لأنني غير مبالية أصلاً بنفسي، ولأن حياتي معه لا تعني لي شيئاً.. وهكذا هي أيامي، تمضي و لا أتقن أية مهارات أخرى.. حتى الكتب منعها عني، وإن كان لا بد لي من القراءة، فالمسموح به هو قراءة المجلات التافهة التي تحمل أخبار مجتمعه المخملي.. لذلك تراني أفكر دائماً بأنني لو عشت ألف سنة، فلن أجد التبريرات التي يمكنها أن تحسن صورته داخلي.. وهو بالمقابل أيضاً لو عاش ألف سنة فلن

يتمكن من تغيير شيء في كياني، إلا هذا القالب الذي اختاره لي.. أربع سنوات قمت بها بدور المراقب المبتسم، الذي تعلم أن هذه الأجواء ينقصها الصدق والثقة.. فعالم الأعمال مرتبط بالسياسة كما هو معروف.. ثم وجهت كلامها إلى همام قائلة:

الثقة وإن وجدت في عالم الأعمال، والسياسة فهي غير مطلوبة وغير مستحبة أصلاً.. طبعا هذا ليس شراً لكنه سلاح تحتاجونه في حياتكم.. إنه التنافس...

زوجي يغط في نوم عميق على مقعد السيارة نتيجة السكر الذي يجعل منه أضحوكة في كل مرة يصر بها على تحدي الطبيعة بشرب ما لا يمكن لأحد منافسته عليه.. والمسكين لا يلبث أن ينهي الكأس الثالث، حتى تراه قد تحول لرجل آخر مقيت قميء، بشع أكثر من حقيقته.. لكن الحسنة الوحيدة التي يظهرها هي نومه بعمق، بطريقة تجعل مشاعرك تختلط بين السخرية والشفقة..

أفكار تدور في رأسي.. هل كنت غبية حينما قلت ما قلته لهمام بيك.. ربما استفزتني ضحكته التي أطلقها عندما قال أنني صغيرة على أجواء كهذه.. ربما كان محقاً، وكان يقصد ما قاله كي يأخذ اعترافات مني، لسبب مازلت أجهله.. فهو ليس غبياً بالقدر الذي أتصوره.. ثم، لماذا أنا مهتمة لأمره هكذا.. أعترف بأن أشياء كثيرة شدتني إليه.. ربما كان المبالغة باهتمامه بي، هو ماجعلني أهتم بالمقابل له.. لكنه سبب غير منطقي إذا كنت أنا نفسي غير مقتنعة به.. شيء غامض شدني إليه منذ أول مرة التقيته بها بالحفل في قصرنا.. اعتقدت أني واهمة وحاولت أن أزيحه عن تفكيري، لكنني لم أستطع.. والليلة كانت شاهدة على كلينا.. فالكهارب التي التقطتها والمنبعثة من عينيه وأحاسيسه استطاعت قول شيء.. كهارب عجزت اللغة عن إيصالها واختصرت كلاماً كثيراً وثرثرة لا تجدي.. كهارب كان كلانا غير قادر على البوح بكلماتها.. لكنها لم تمنعه من ضرب موعد معي يوم الخميس القادم ولم تمنعني أنا أيضا من الموافقة.

عيناي تلاحقان عقارب الساعة ولا أدري من منا ينفث سمومه بالآخر.. دقات قلبي تتسارع وأنفاسي تلهث.. كأنها في ماراثون للسباق.. أشعر باضطراب يلاحقني.. وكلما حاولت الهروب بأفكاري، شدتني خيوطاً غير مرئية باتجاهه..

اقتربت من المطعم، الذي اتفقنا على اللقاء به.. إنها الثامنة.. وأنا الوقت الواقفة أنفاسه كمن يراقب بهلواناً يرقص على حبال مشدودة..

أوشكت على الوصول.. أخذت نفساً عميقاً واستجمعت قوتي وتوجهت صوب باب المطعم، الذي كان همام واقفاً أمامه ينتظرني بوسامته.. بعطره الأخاذ.. بابتسامته التي أحببتها.. بتهذيبه الذي شدني إليه..

لا ترتبكي وأنت معي.. قالها بعدما شعر باضطرابي وبرودة أطرافي حينما صافحني

المكان الذي اختاره والذي قال عنه أنه مطعمه المفضل.. وكان محقاً، يبعث على الهدوء والطمأنينة.. الديكور الخشبي.. الإضاءة الخافتة.. صوت فيروز الذي ينبعث في الأجواء، راسماً أحلاماً لاحصر لها.

بادر بالقول.. هل أنت نادمة أنك قبلت دعوتي؟

ما الذي سيتغير إن قلت أنني ندمت؟؟

شعورك بالندم لن يغير شيئاً.. فقط سيجعل الأمور تتعقد..

كيف؟

ربما تضطرين للاعتذار والدفاع عن نفسك، وهذا شيء لا أريده أن يحصل.. فأنا مذ وقعت عيناي عليك في أول لقاء.. قلت في نفسي أن عدنان لا يستحق ملاكاً مثلك.. ولا أخفي عنك سراً، بأني تمنيت أن تكوني لي، ولأجل هذا أقمت الحفل لأتمكن من لقائك ولأتقرب منك أكثر..

شعر بارتباكي يتزايد وأنفاسي تتسارع، حاول أن يخفف حدة توتري بقوله

لاترتبكي وأنت معي.. ما أقوله حقيقة نادرة الحدوث في حياتي.. ربما تستغربين من كلامي، أو ترفضين تصديقه.. أنا لا ألومك لأنني شعرت نفس شعورك واستغربت من نفسي...

شعرت بأنني كالبلهاء، العاجزة عن الكلام.. وانتابني شعور فتاة ريفية هبطت في مدينة للألعاب الترفيهية الخيالية...

صحوت على سؤاله لماذا لم تنجبي أطفالاً من عدنان.. لم أتردد في الإجابة... ربما كنت بحاجة لمن يسألني عني.. لشخص أشعر به.. أشعر بقربه لنفسي.. يسألني لأنه يهتم بي وبما أشعر.. وهمام كان كذلك.. وكأن سؤاله أيقظ في نفسي حنيني للأمومة، التي أخفيتها خلف جدران صمت تداعت وانهارت أرضاً لتفجر، كل ماخبأته خلفها طيلة تلك السنين.

ذات مرة.. وبينما عدنان جالس في مكتبه دخلت عليه لأبشره بأني حامل... لن أنسى تلك اللحظة... وكأن صاعقة نزلت عليه لتشطره أجزاء تناثرت على كل جزء من جسدي... نهض كالمجنون من خلف مكتبه... أمسك بي قائلا غداً تجهضين.. رجوته أن لا يفعل.. قبلت قدميه.. وأنا أردد كلمة أرجوك لا تفعل.. دفع وجهي بأسفل قدمه ودفعني بعيدا قائلا:

من قال لك أنني أريد أطفالاً منك... من قال لك أنني أحبهم أصلاً.. ما هم إلا عبء إضافي ومسؤوليات وطلبات لا تنتهي، وفي نهاية المطاف سيستولي على ماحققته طيلة السنين التي كنت أعمل بها كآلة لا تهدأ، حتى حققت ما أصبو إليه، ثم أردف وهو يلهث ويرتجف.. إلى أن يأتي حضرة ولدي المصون ليأخذ ماجنيته دون أي اكتراث أو مبالاة...

لا أدري يومها كيف استيقظت اللبوة داخلي والشرر يتطاير من عينيها وصرخت بوجهه

أنت رجل مريض.. خائف من نفسك.. لهذا السبب أنت دائم القلق.. أنت خائف أن يتمثل ابنك بشخصك.. ويفعل بك كما فعلت أنت بأبيك حينما اتهمته بالجنون.. وحين مات لم تكلف نفسك إقامة عزاء لروحه بعد أن قمت برشوة مدير المشفى، ليتكفل بدفنه بعيداً.. هل تعتقد أن كل مافعلته بحق شقيقتيك وأبيك وحتى أنا، وما ستفعله، سيرحمك من عقاب السماء؟ أنت وحش ظالم...

اقترب مني يومها وأخذ يضربني، حتى لم أعد أشعر بلكماته وركلاته على جسدي.. وكأن خدراً أصابه.. ثم أمسكني من رقبتي بقبضة يده قائلاً بهدوء يشبه فحيح أفعى.. وأسنانه تصطك وعيناه بحر دم:

كلمة لن أكررها مرة ثانية.... غداً ستجهضين...

عندما صحوت من البنج في اليوم التالي، كانت الممرضة تمسح العرق البارد عن جبيني قالت وهي تطبطب علي، بكيت كثيراً يا ابنتي تحت تأثير المخدر وكنت تأنّين أنيناً متقطعاً، جعلني أبكي لأجلك فما زلت صغيرة جداً على استئصال الرحم بعد إسقاط الجنين.. حينها عرفت أن عدنان اشترى الطبيب كعادته...

توقف كل شيء لحظتها.. السيارات في الشوارع توقفت عن المسير.. غاب صوت الممرضة الحزين، ولم أعد أرى إلا شفاهاً تتحرك.. الغابات ارتدت ثوب الحزن.. كل ما حولي تحول إلى ضباب.. حتى شعوري توقف عن الشعور.. ولم يعد مهماً إن بكيت أو اعترضت أو صرخت أو احتججت.

همام كان حالة من الغضب المكبوت وهو ينصت إلي... صمته شرح كل شيء.. لم يلفظ ببنت شفة.. عيناه شرحتا كل الحزن القابع داخلي.. سمعت داخله صرخات احتجاج... تسألني وما ذنبك.. أطرق رأسه ثم رفع عينيه قائلاً: «ماذا أقول؟؟ هربت كل الكلمات.. لكنني أشعر تماماً بما شعرت به عندما توقف كل شيء حولك.. إلا شعوري بالغضب..»

أجبته مبتسمة غير مهم.. غير مهم.. لا الغضب سيعيد ماخلفته علاقة فاسدة... ولا البكاء سيعيد لي رحمي...

سحب نفساً عميقاً من سيجارته.. وهو مايزال متأثراً بما سمعه قبل قليل..

طليقتي كانت رائعة بكل المقاييس، أو أن حبي صوَّرها لي كذلك.. كانت بنظري ملاكاً منزهاً عن الأخطاء.. وآلهة للجمال.. مع أنها كانت تحمل جمالاً عادياً قياساً بغيرها من النساء.. مرحة.. لاتهدأ حركتها.. تكره الروتين وقادرة على خلق كل جديد في كل يوم.. واثقة من

نفسـها لاتكترث للآخرين بما يقولونه أو يفعلونـه.. امـرأة تكـره التفاصيـل اليوميـة حتـى أنـك تجدينهـا تطلـب منـي أن أركـن سـيارتي فجـأة.. وفـي أي مـكان أعجبهـا.. وتشـدني مـن يـدي لنكمـل سـيراً علـى الأقـدام.. ولا يهـم إن كان الجـو مثلجـاً أو عاصفـاً أو حـاراً أو ماطـراً.. كان يجـدر بـي أن أتنبـه للحـالات المزاجيـة التـي تطـرأ عليهـا فجـأة... لكننـي لـم أكـن أراهـا إلا تصرفـات طفوليـة تسـعد رجـلاً مثلـي.. رجـل عملـي، عقلـه مجموعـة أرقـام وحسـابات... هـذه الأسـباب هـي التـي دفعتنـي للارتبـاط بهـا دون أن أرى مـا يـراه مـن هـم حولـي ويصفونهـا بالمسـتهترة بينمـا أراهـا متجـددة مبدعـة..

بقيـت حياتنـا علـى تناغـم وحـب، إلـى أن أنجبـت ابننـا عاصـم... والـذي تحولـت بعـده إلـى امـرأة أخـرى شرسـة الطبـاع، لا تكـف عـن التذمـر لأي شـيء، ومـن أجـل أي شـيء مهمـا كان تافهـاً.. تحولـت لامـرأة قاسـية لدرجـة أنهـا رفضـت إرضـاع الطفـل خشـية علـى ثدييهـا مـن الترهـل.. حتـى أننـا اضطررنـا لاسـتقدام مربيـة تشـرف علـى العنايـة بـه.. تحولـت حياتنـا لجحيـم لا يطـاق وتحـول بيتنـا لحلبـة مصارعـة نتبـادل بهـا لكـم الكلمـات والاتهامـات فيمـا بيننـا.. ورغـم كل مـا كانـت تفعلـه.. كنـت أجدنـي أبحـث عـن المبـررات التـي تجعلنـي أحتـوي أخطاءهـا نتيجـة عشـقي لهـا.. لكننـي لـم أعـد أملـك الصبـر حيـال ماتفعلـه.. لقـد تحولـت مـن امـرأة وديعـة مرحـة رقيقـة... لحيـوان شـرس لا يفتـأ أن يـزأر فـي وجهـي كلمـا حاولـت ترويـض انفعالاتـه.. إلـى أن جـاء يـوم كانـت انفعالاتهـا مثيـرة للشـك.. كأن مسـها جنـون.. حاولـت تهدئتهـا وملاطفتهـا وتذكيرهـا بذلـك الحـب الكبيـر الـذي كان.. وقبـل أن أكمـل كلامـي.. وفـي فـورة غضبهـا.. نفخـت فـي وجهـي نـار كلمـات أحرقـت كل رسـائل الحـب التـي كانـت تعيـش داخلـي.. قاالـت والشـرر يتطايـر مـن عينيهـا

«ومـن قـال لـك أننـي أحببتـك ذات يـوم؟ ومـن قـال لـك أننـي لـم أكـره نفسـي منـذ أن أنجبـت تلـك المصيبـة ابنـك.. لـم يعـد فـي وسـعي القيـام بـدور ممثلـة عاشـقة علـى مسـرح علاقـة محكـوم عليهـا سـلفاً بالخيبـة والفشـل.. طلقنـي.. وليذهـب كل منـا إلـى طريـق..»

وقفت مشدوهاً غير مصدق ماسمعته.. صدمتي كانت أقوى من الكلام.. أو حتى استفسارات لأسئلة كثيرة تتخبط بين أمواج أفكاري.. وماذا يهمني أن أعرف بعد أن شعرت أنني رجل مخدوع بحب امرأة كانت كل حياتي.. قبل أن تتفوه بكلمات الجنون التي رمتها علي رشاً ودراكاً... والتي شرحت لوحدها كل المواقف السابقة... وكشفت الستار عن كل ما كانت تفعله.. طلقتها ولم أعد أعلم عنها شيئاً الآن.. والأصح أنه لم تعد تهمني أخبارها لكن كل ما عرفته أنها غادرت البلاد بعد فترة وجيزة من طلاقنا.

صحوت على صوت همام صباحاً على الهاتف يقول:

هل نمت جيداً؟

نعم وبعمق

كانت جلسة لطيفة رغم مآسي الظروف التي تحدثنا عنها.. لكنه لقاء يجب أن يتكرر.. لن أكتفي بلقاء وحيد شعرت من خلاله أنني ولدت من جديد.

وتكررت اللقاءات، وزوجي غير آبه كعادته لأي شيء إلا تجميع المزيد من الأموال والصفقات.. فهو لم يكن مهتماً يوماً أين ذهبت ومتى عدت... وهذا بالطبع أمر مريح بالنسبة لي.. إذ يريحني من اختلاق أعذار كاذبة إن سألني ذات مرة أين كنت؟؟

ذات أمسية هادئة صيفية قال لي:

أنا رجل لا أضيع وقتي سدى، بل إنني لا أجد الوقت لذلك.. دخلت الحياة من بابها الواسع.. وتابعت ما بدأ أجدادي عمله.. كنت امتداداً لهم كما سيكون ابني امتداداً لي.. تعرضت كثيراً في حياتي للغدر والخيانة.. وبالرغم من كل التحصينات التي تحميني إلا أنني لم أنج من أفخاخ نصبت لي.. وأوقعتني بمآزق مادية كثيرة...

وفـي كل مـرة كانـت هنـاك معجـزات تنتشـلني لأنهـض مـن جديـد..أنـا أؤمـن جيـداً أن هنـاك أيـادٍ خفيـة تسـاعدنا فـي الوقـت المناسـب... أيـادٍ غيـر مرئيـة تجزينـا خيـراً لعمـل قمنـا بـه.. أو مسـاعدات لأشـخاص كانـوا يحتاجـون وقفتنـا معهـم ولـم نغلـق الأبـواب فـي وجههـم بحجـة أن اللـه كفيـل بهـم.. ثـم تابـع حديثـه وهـو ينفـث دخـان لفافتـه

أنـا مقتنـع أن الحيـاة تسـير ضمـن خطـة نوجدهـا لأنفسـنا.. وهـذا مـا يجعلنـا نؤمـن بتلـك الأيـادي التـي تقـوم بإنقاذنـا وكأنهـا حبائـل خـلاص، قـادرة علـى الفتـك بحبائـل مكائـد ينصبهـا لنـا أحـد مـا.. ومـا حبائـل الخـلاص تلـك إلا أعمـال قمنـا بهـا لأشـخاص، كانـت دعواتهـم تصـل للسـماء لتنقذنـا فـي الوقـت المناسـب.. سـأعطيك مثـالاً قالهـا وهـو يعـدل مـن جلسـته

علاقـة الرجـل بالمـرأة علاقـة معقـدة مـن وجهـة نظـر كثيريـن، يحاولـون جعلهـا فلسـفة ويتعمقـون بهـا... وكلمـا زاد عمـق الشـرح زادت تعقيـداً... وكلمـا زادت فـي العمـق زاد الضيـاع، فـي إيجـاد أجوبـة لا تجرهـا إلا أسـئلة.. وكلمـا زادت الأسـئلة التـي لا تجـر إلا أسـئلة مثلهـا، جـاءت النتيجـة علـى نحـو لا يرضـي أصحابهـا.. فـلا هـم عرفـوا ماتريـد المـرأة، ولا هـم وجـدوا حـلاً لمـا يرضـي الرجـل.. المسـألة أهـون بكثيـر ممـا يعتقـد البعـض.. أعتقـد أنـه لا يوجـد علاقـة مثاليـة بالمعنـى الشـمولي لأيـة علاقـة سـواء كانـت ارتباطـاً أو زواجـاً.. أو حتـى صداقـة.. كل مـا علينـا هـو محاولـة تحقيـق مـا نريـد تحقيقـه ليتناسـب مـع أحلامنـا.. هنـاك أمـور حياتيـة أخفقنـا فـي إيجـاد حلـول لهـا تحـت وطـأة ظـروف، لـم نكـن نـرى الأشـياء خلالهـا إلا مـن زاويتنـا نحـن دون مشـاركة الآخـر همومـه واحتياجاتـه... وأقحمنـا أنفسـنا فـي تفاصيـل ضخمناهـا وجعلنـا منهـا بدايـات مأسـاة.. ولـم تكـن تسـتحق كل هـذا العنـاء.. وبالمقابـل هنـاك أشـخاص ربمـا لـم يكونـوا يملكـون مـا نملـك.. وحققـوا ماعجزنـا نحـن عـن الاحتفـاظ بـه.. وهـذا طبعـاً جـاء نتيجـة أخذهـم الأمـور علـى بسـاطتها دون الدخـول فـي التفاصيـل..

اقترب مني وقد شابك أصابع يديه.. شعرت أن كل ما قاله آنفاً لم يكن إلا مقدمة لما سيقوله الآن..

«آمال اسمعيني جيداً.. منذ أول مرة رأيتك فيها شعرت بأن الأيادي ذاتها كانت تلعب في الخفاء بيني وبينك.. وكأنها سفينة أتت لإنقاذنا معاً.. نسجَ القدر خيوطه اللامرئية، كي يهيئ لنا مايسعى كل منا لتحقيقه.. ثم أمسك بيدي، وكانت هي المرة الأولى التي يلمسها قائلا برقة :

عندما رأيتك أول مرة شدني إليك شيء غامض، لا أدري ما هو.. شعرت بأنك ستكونين لي ذات يوم.. وقبل أن يكمل أجبته وأنا أسحب يدي من يده:

تخيفني همام العواطف المندفعة، والفجائية.. تشعرني بالريبة.. فهي قادرة على الاختفاء بنفس الاندفاع الذي جاءت به.

أجاب بجدية: هي ليست فجائية كما تقولين، ثلاثة شهور كافية لاتخاذ قرارلا رجوع عنه، جاء نتيجة تخطيط.. ثم إن هذه العواطف لا تنطبق على رجل مثلي، اقترب من عمر الأربعين وليس (جهل الأربعين) كما يقولون.. قالها وهو يضحك.

آمال أنا مقتنع بأن الحب الذي لا يأتي منذ أول لقاء، ربما لن يأتي بعد ألف عام.. سبق وقلت لك، أنا رجل لايهتم بالقشور والسطحيات.. جمالك ومظهرك الخارجي هما آخر ما شدني إليك، وتجربة طلاقي جعلتني أتلافى أخطاء ارتكبتها، فأنا لست على استعداد للخسارة مرتين.. آمال، أنا أبحث عن امرأة لا يتقاسمها معي أحد.. ممنوع الاقتراب منها أو إلقاء كلمات الإعجاب في أذنيها.. القسمة بمعنى أنني أريد زوجة لبيتي.. تكون أماً لابني عاصم تحتويه وتحتويني معه.. أماً حقيقية تمنح الحب والعطف اللذين فقدتهما.. ففاقد الشيء برأيي، هو الذي يعطيه وليس العكس.

استيقظت صباحاً على صوت عدنان وهو يهم بالخروج.. تظاهرت

بالنـوم إذ ليسـت لـدي الرغبـة فـي مواجهتـه بطلـب الطـلاق.. ارتأيـت أن أكتبها علـى ورقـة كـي تبقى عالقة فـي ذهنه، ولا يتجرأ علـى مقاطعتـي.. قـررت أن أكتبهـا وأخـرج للأبـد مـن قصـر بـلا روح.

«عندمـا تقـرأ هـذه الكلمـات سـأكون فـي أحضـان أمـي.. أمـي التـي كنـت ترفـض اسـتقبالها فـي صالـون قصـرك خشـية أن يراهـا أحـد مـن معارفـك وتسـبب لـك الإحـراج.. لـن أسـتقبل أمـي بعـد اليـوم فـي الغرفـة القريبـة، مـن غـرف الخـدم، الغرفـة التـي كانـت تُرمـى بهـا أغـراض القصـر القديمـة والتـي نظفوهـا بنـاء علـى أوامـرك، لتكـون غرفـة اسـتقبال لهـا.. لـن أكـون موجـودة فـي هـذا القصـر بعـد اليـوم، ولـم يعـد الاستسـلام للفشـل والمجامـلات والكـذب طريقـة حيـاة.. سـتخرج مـن قصـرك تلـك الدميـة التـي كنـت تحركهـا وتتشـفى كلمـا رأيـت الهزيمـة والانكسـار فـي عينيهـا.. هنـا فـي نفـس هـذا المـكان منـذ عـدة سـنوات.. هنـا فـي مكتبـك عندمـا ركلتنـي بقدميـك، وكنـت أتوسـل إليـك أن لاتحرمنـي مـن طفلـي.. هنـا فـي نفـس هـذا المـكان الـذي فكـرت بـه وقـررت انتـزاع رحمـي.. سـأعيد عليـك مـا قلتـه لـك يومهـا عندمـا لـم تأبـه لدموعـي وتوسـلاتي وكان قـدري بيـن يديـك:

الظلـم لايـدوم.. وكل شـيء إلـى زوال إلا مـا تصنعـه أيادينـا.. ومـا نفعلـه مـن خيـر أو شـر فإننـا ملاقـوه لامحالـة.. وعندمـا يغيـب العـدل فـي الأرض.. أو يتأخـر تكـون السـماء منشـغلة بنسـج خيـوط العدالـة لتلفنـا بهـا كعبـاءة تدفئنـا مـن قسـوة ظلـم تسـبب لنـا بهـا البشـر.. ظلـم طالمـا بكـى وحيـداً وحيـن يصمـت كانـت تدغدغـه سـكين اللامبـالاة التـي تنـكأ جروحـه فـي العتمـة وحيـداً لا يسـأل عنـه أحـد.. ولا تُمـد إليـه يـد المسـاعدة مـن أحـد ولا حتـى منديـلاً يكفكـف دمعـه.. تذكـر دائمـاً أن السـماء لا تؤجـل موعدهـا معنـا مهمـا تأخـرت.


أنين يؤازر أنين



أنين يؤازر أنين

حقيبة سفره أصبحت جاهزة.. زوجته السويدية تناوله التذاكر وتوصيه بأن لا ينسى التقاط الصور الجميلة للأسواق والحارات التي طالما تحدث عنها أمامها، وأمام ابنته ذات الأربعة عشر عاماً.

ساعات ويصل دمشق.. ساعات تعادل عشرين عاماً قضاها بعيداً عن بلده.. عشرين عاماً توازي بحجمها ثقل مسافاتها ووجعها وغربتها

هبطت الطائرة، وهبط قلبه معها فرحاً كطفل صغير عادت له أمه بعد سفر طويل.

عاد بذاكرته لسن الرابعة عشر أي قبل مغادرته بلده بتسعة أعوام.. حين جاء ابن عمه المقيم بأمريكا وكان باستقباله في المطار جميع أفراد العائلة كباراً وصغاراً.. بينما هو يفكر الآن من أين يشتري الورود لزيارة المقابر

ختم جواز سفره عند الموظفة الشقراء جداً، والتي تتقن جميع اللغات ماعدا العربية

اقترب منه الحمال الزنجي، لأخذ حقيبة سفره بعد أن قال له (همد لله آلى سلامة)

سأله منهل

من أين أنت؟

(أنا من هنا من دمشك)

لاذ منهل بصمت ساخر ومضى

السائق لا يكف عن الثرثرة، بعد السؤال التقليدي من أين أتيت لكنه سؤال يشعره بالغبطة والألفة والدفء.. ثرثرته نتيجة لعلاقات اجتماعية مازالت تحب معرفة الأشياء، حتى لو كانت لا تخصها.. يثرثر

معه منهل وعيناه على الطريق الذي لم يجد به أثراً واحداً يشبه تلك الطرقات التي تركها قبل مغادرته.. حتى اللوحات الإعلانية لم يجد بها إعلاناً واحداً مكتوباً باللغة العربية.

لماذا أتيت بعد كل هذه السنين؟ يسأله السائق

جئت لبيع البيت الذي ورثته عن أبي، ومن ثم أعود للسويد

تلكأ السائق وكأن صاعقة نزلت على رأسه.

هل قلت مايدعو للريبة؟

لا.. لا.. خيراً إن شاء الله

تتوقف السيارة والسائق يهم بإنزال الحقيبة أمام فندق ويست

يقول له منهل..

مهلاً.. لقد حجزت في فندق ويست.. وهذا الفندق أذكره جيداً إنه فندق الشام

أوووووه ياسيدي.. لقد تغير اسمه بعدما ابتاعته شركة غربية من أصحابه الأصليين وأصبح هذا اسمه.. يضحك السائق مقهقاً بصوت مرتفع ليقول..

سيدي نحن في عام ٢٠٢٧، لقد تغيرت أشياء كثيرة خلال السنين الماضية

يطأطئ رأسه منهل ويلوذ بالصمت مرة أخرى ويجر خيبته، ويمضي إلى الداخل

يطلب من موظفة الاستقبال إيقاظه عند السابعة صباحاً.. مع طلبه لسيارة أجرة ترافقه طيلة فترة إقامته.

لم يستطع منهل النوم في تلك الليلة، رغم التعب الذي أخذ كفايته منه.. حاول جاهداً أن ينام لكنه عجز رغم الحمام الدافئ والصابون المعطر وجو الفندق المريح.. هذا الاسترخاء فتح نافذة في عقله تتسرب منها أسئلة، تحتاج أجوبة هرب منها طيلة السنين الماضية.

هل عدت حقاً لبيع ملكية المنزل؟ أم أنه الحنين المتجذر كشجرة معمرة يتعرش عليها لبلاب حزين، نسينا الالتفات إليه في زحمة أعمالنا وقسوة غربتنا، ومسؤولياتنا وحيواتنا التي اخترناها حين غادرنا البلد مرغمين.. لبلاب يتعرش، ويتعرش حتى وصل إلى رقابنا ليوقظنا من غفلتنا ويحاسبنا، عما فعلناه بوطن كان بأمس الحاجة إلينا حين لوحنا له بأيدينا مودعين نبكيه بدموع كاذبة، مبررين لأنفسنا أن ما فعلناه هو الصواب.

ولماذا ألوم نفسي، وكان لا بد من الرحيل حين تحولت البلد لقاتل ومقتول، والاثنان لم يكونا بريئين مما حصل..

قبل أن أتخذ قراري بالرحيل صرخت كثيراً في التظاهرات، وصرخت في المقاهي، وصرخت بوجوه الناس، وصرخت أثناء نومي وفي صحوي.. صرخت بهم ارجعوا لبيوتكم، فأنتم عبيد والحرية لن تسكن أجساد الرقيق.. ومن يتحكم فينا هم عبيد مثلنا.. وأنتم لستم سوى قطعان تساق إلى مسلخ عبودية آخر اسمه الجوع.. وإن سلمتم من الذبح لن تسلموا من الجوع والتشريد.. صرخت.. ارجعوا فالحر لا يحتاج للمطالبة بحريته.. الحر من يحول الطين إلى مروج يلعب بها أطفاله.. والحر من كان همزة وصل بين ماض يبحث من خلاله عن الحقيقة ليربطها بحاضر يتأهب به للمستقبل دون ارتكاب الأخطاء السابقة..

صرخت.. ارجعوا فالوطن يتحول لساحات صراع ودماء حين يسيطر عليه لصوص الشرائع وتدوينها بما يحلو لهم.

صرخت.. ارجعوا قبل أن يغتصبوا ما بقي داخلكم من بقايا حرية سيستبيحونها بعد استباحة أجسادكم وما تبقى من حقوقكم..

صرخت.. ارجعوا فحقوق الإنسان كذبة اخترعها الغرب الهمجي ليحمي نفسه منا.

ارجعوا مهما فعلتم لن تحصلوا على جائزة من العالم المدعي وقوفه بجانبكم.. فالجائزة ستمنح لمصور صحفي أوروبي قام بتصوير جثة طفل خالية من الدماء كي لا يؤذوا مشاعر مواطنيهم برؤيته.

صرخت وصرخت وكان الآخرين يصرخون.. لذلك لا أنا سمعتهم ولا هم سمعوني.

يدخل منهل مع السائق إلى دائرة الطابو.. يعطي الموظفة ماطلبته من أوراق.. تغيب برهة وتعود قائلة:

أرجو المعذرة يا سيدي، يرجى المراجعة بعد ثلاثة أيام فلقد مضى وقت طويل، ولم يحاول أحد من طرفكم السؤال عن هذه الملكية.

ينصرف منهل طالباً من السائق إيصاله إلى باب سريجة. لقد اشتاقت روحه لشم رائحة المخللات، ومنظر الخضار، والباعة الذين يدللون على بضاعتهم بأسماء كانت تفرحه عند سماعه لها مثله مثل الجميع من أبناء بلده.

ينزل السائق راكضاً ليفتح الباب

تفضل ياسيدي

ماهذا؟؟ لقد طلبت منك أن تأخذني لسوق الخضار.. سوقنا الشعبي

ولكن ياسيدي لم يتبق أثراً للسوق، فكما ترى أمامك، لقد بنوا مكانه مركز تسوق ضخم يحتوي جميع مايمكنك شراؤه.. ومن جميع دول العالم.

يحزنني مايبهجك.. ويؤسفني مايدعوك للافتخار والدهشة، والإعجاب.. لقد نالت الغصة من قلبي منذ اليوم الذي دخلت به مطار بلدي وأنا لا أرى فيها ملامح أبناء البلد بوجوههم المألوفة.. ولا حتى حركاتهم التي نتعرف بها على بعضنا البعض.. حتى أننا كنا نحزر لأية منطقة ينتمي إليها هؤلاء بالسهولة نفسها، التي تتناول بها كأس ماء

يصحو منهل من شروده على صوت السائق قائلاً

من هنا ياسيدي تفضل

لا شكراً لا أرغب بالدخول.. خذني إلى باب البريد، أريد أن أتناول طعامي في إحدى المحلات الشعبية

ازدحام وأسماء للمحلات، لم يسبق له أن رآها من قبل.. أسماء لا تنتمي للبيئة التي خرج منها.. وجوه مكفهرة ليس بها أثراً للعافية.. حتى ابتسامات الباعة عابسة.. وجوه لا تملك الوهج ذاته الذي كان يتلقفه حين كان يمر في الأسواق مع أمه.. بضاعة تختلف تماماً عما كانت تشتهر بها دمشق.. يصدر من قلبه حزن يطغى على كل الروائح المنبعثة من بخور كريه، وعطور خاصة بالشيوخ كادت تقضي عليه.. الحارات تشبه التوابيت.. لا روح فيها ولا حتى شبه، بما كانت عليه منذ زمن مضى.. والناس كالموتى تمشي أمامه مستنفرة.. عيونها تقدح شرراً قادراً على إحراق كل شيء بلحظة.

لائحة الطعام مليئة بكل أنواع الطعام والمقبلات ماعدا المأكولات الدمشقية

ينتزعه رغيف الفرح، الذي كان يتقاسمه مع أمه في هذا المطعم الشعبي قبل عشرين عاماً.. ليرميه خارجاً بعدما احترق بجمر الذكريات التي أشعلت لظى قلبه نزفاً، وقهراً، وحزناً.. شفته السفلى ترتجف كشفة طفل ببداية بكائه.. وحنجرته تتشنج متألمة بدمع مالح لا يريد إظهاره.. كان يبتلع دموعه مع كل لحظة عاشها هنا، بفرحها وتعاستها ومرارتها مع أصوات أزيز الرصاص، وخدعة ما أسموه هدن.. لكن رغم كل الذي عاشه، فهو لا يستطيع أن ينكر بأنها كانت أصدق لحظات حياته وما عاشه من عمره..

عشرون عاماً لم تغير من حقيقتي شيئاً.. من منا قادر على خلع حقيقته وقد عاش سنوات من الوجع والموت والقتل والهروب، من نفق إلى نفق آخر، ومن منفى إلى منفى.. من منا قادر أن يخلع

ذاكرته المسكونة بعشرات الأصدقاء، الذين ماتوا في أحضاننا.. عشرون عاماً ومازال صوت راجمات الصواريخ يصم أذني، أنام وأستيقظ على قهقهات السجان الذي كان يسكب فوق رأسي الكلور والبنزين، صارخاً في واحد من كوابيسي التي عشتها في الغربة.. عشرون عاماً مازالت كتفي تتحسس جثة صديقي، الذي حملته معي عبر الجبال لأوصله لقريته كما أوصاني، قبيل موته بساعات.

من منا قادر على تغيير حقيقته، ونزع جلده إلا الأفاعي؟

يتدرج منهل إلى مقهى النوفرة.. يركض السائق فاتحاُ له الباب شارحاً له كم كلف بناء هذا المبنى الحديث أصحابه من مال، لكنهم كانوا كريمين وأصيلين حين لم يغيروا اسم المقهى.. أين تريد الجلوس ياسيدي هنا أم في الطابق العلوي؟

لا أريد هذا، ولا ذاك.. فالمقهى كما البيوت كلهم تساقطوا.. وماتراه أنت جديداً.. أراه أنا خراب.

يصعد منهل السيارة طالباً من السائق الذهاب إلى خارج المدينة.. السائق يتوقف فجأة، كمن أصابه مس قائلاً.

هذا صعب جداً الآن ياسيدي، فالخروج للمناطق الأخرى يتطلب الموافقة من مركز أمن المدينة التي تقيم بها، ومثل هذه الإجراءات تحتاج لأسبوع بالموافقة عليها.

آآآه ياوجعي... ياالغيرتي وحسدي من بلاد نزعت بينها الحدود وأصبح بإمكان المرء الدخول والخروج فيها ومنها متى شاء، دون موافقات ومن غير جواز سفر.. ياللعروبة التي لم نمارسها إلا بكتابة حروفها.

هل الحب اضطهاد؟ هل كان حبنا هو السبب وراء كل ماحصل لبلدنا.. هل أخطأنا بتعريفنا لهذا الحب، ووجهنا بوصلتنا بالاتجاه الخاطئ من غير أن ندرك مقدار التعاسة الذي ستكون عليه؟

يكاد يخنقني هذا الذل في بلد كانت الخطيئة بها هي الحرية.. رموها بكل أنواع الحجارة ورجموها بكل ماتناولته أيديهم، وحين

صرخت هنا معبد حريتي.. كشر العالم كله عن أنيابه وتناوبوا جميعاً على اغتصابها.. كمموا فمها حتى لا تفضحهم، ومنهم من أفتى بأن صوتها عورة.. وضعوا غطاء رأس على شعرها لأن رؤيته حرام.. وحين انتهوا.. رفعوا رايات قماشهم المكتوب عليها طلاسم لا يؤمن بها أحد حتى ولا هم.. جميعنا ساهم بقتلها.. لماذا ننفي التهم عن أنفسنا.. لماذا نحمل الآخرين وزر أفعالنا، التي لم تختلف كثيراً عما فعله غيرنا.. كانت تغتصب حين لملمنا أمتعتنا وغادرنا.. وصممنا أذاننا عن صوت صراخ وجعها.. جميعنا كانت تبريراته جاهزة، وكان يعلم بأنه يكذب لكنه استمرأ تلك اللعبة ومضى بها بعدما عجز عن الدفاع عنها.. جميعنا تحولنا لناطقين رسميين باسمها.. ونصبنا من أنفسنا أبطالاً وهميين نحارب طواحين الهواء في بلاد لجوئنا.. وعملنا.. وتزوجنا.. وأنجبنا أطفالاً غربيين.. وأقسمنا بأننا حين نعود سنكتب بطولاتنا التي لم تشهدها إلا راقصات أوروبا في الحانات.

نعم نحن من أجرمنا بحق وطننا، حين تحول كل منا لمخبر يكتب التقارير عن جاره وحتى أخيه.. نحن المجرمون الذين مددنا أجسادنا كي يمروا فوقها بجزماتهم، وحين لم يعد يرق لنا المشهد انتفضنا مستنكرين وكأنها لعبة يحلو لنا متى أردنا إيقافها، توقفت.. خرسنا حين كان يجب علينا الكلام.. وصرخنا بعد فوات الأوان..

كم كان الناس مغفلين حين صدقوا بأنها ثورة ولم يعلموا أنها حرباً استباقية وكنت أترأس أنا جمعية المغفلين جميعهم.

يستيقظ منهل من شروده على صوت السائق مبتسماً غبطاً..

مارأيك ياسيدي بالذهاب لمكان رائع مخصص للرقص الشرقي.. اسمه فودكا بار.. ولا يبعد كثيراً عن مكان إقامتك.

لا أشعر بالرغبة لذلك شكراً لك.. أنتظرك في الثامنة صباحاً لإيصالي إلى دائرة الطابو.

ليلة أخرى من المعاناة مع النوم المضطرب الذي جعل من منهل متوتراً وعصبياً..

ماذا فعلنا بوطننا وكيف أحببناه، ونحن الكارهون لأنفسنا.. نطالب بكل شيء ونحن لا نملك شروى نقير.. وكانت كلما ارتفعت وتيرة جملة تحسين وضع الشعب، كلما أطرق الشعب في مضغ العشب تخوفاً من اللهجة التصاعدية إيذاناً بخفض سقف مطالبهم.. فالوطن وقعت حيطانه أرضاً، ولا داعي للحميّة الفارغة التي مضى وقتها.

خرج إلى الشرفة.. لا يغريه شيئ للنظر إلى ما هو أبعد من منظر الشارع ولذلك جلس على الكرسي مغمضاً عينيه..

كيف استطاعت تلك الأجزاء التي خزنتها في ذاكرة مخفية من الخروج بعدما رميت مفاتيحها، في نهر بردى قبل أن أخرج من دمشق وقررت بأنه الخروج الأخير.. كيف عادت ذكرى نرجس، حبي الأول التي كنت أريدها بكل جوارحي وخائفاً منها في الوقت ذاته..

هنا لا مكان للهروب من ذكرياتك.. فهي تجتمع دفعة واحدة كجرعة من دواء انتهت مدة صلاحيته.. دواء لن يشفيك ولن تنسى طعمه المر.. هنا ينبش حفار قبور الذكريات قبرك، ليستخرج ما توهمت أنك دفنته وانتهى الامر.. وأنت لا تملك إلا الانصياع والخضوع بالاعتراف بذلك الماضي دون وضع مساحيق تجميل، فالماضي ماضي ولا يملكنا الا الاعتراف بما كنا عليه، في ذلك الزمن الذي مضى ولن يعود..

أين أنت يا نرجس.. يامن كنتِ لؤمي، وكنتُ جبنك الذي بصقت نواته على رصيف عادات رفضتِها وتمردتِ عليها، وارتديت أنا نقاب ذلي دون أن أجرؤ على اللحاق بك لانقاذ ذلك الحب الكبير.. أين أنت الآن بتمردك وجرأتك اللذين أعجبت بهما ورفضتك لأجلهما، حين خاف الرجل الشرقي القابع بداخلي من الاقتراب منك خوفاً من انتصارك

عليه.. كم عذبني ذلك التناقض بين قبولي بك ورفضي لك.. بين اعترافي بك ورفضي لما تفعلينه.. أذكر جيداً آخر لقاء كان بيننا أمام النهر العتيق وكانت تمطر بشدة، ويمطر معها حبي وشوقي للقائك.. وأتيت بكل العشق التي حملته النساء على مدى عصور، وأصريت يومها على اللقاء أمام الجميع ورفضت ذلك وجبنت.. ومضيت للمرة الأخيرة مبللة بالحزن والقهر.. دون أن تلتفتي مرة واحدة للخلف، بينما تلاحقك عيناي إلى أن غيبك المنعطف.. آآآآآآه يا أنين يؤازر الأنين.

وجوه المارة خارجة عن نطاق الألفة والتوهج.. الناس يمشون كالمنومين، وأحياناً تراهم وكأنهم موجهين بجهاز كونترول يحركهم عن بعد.. لا أحد ينظر إليك.. لا أحد مهتم لمشاجرة حصلت على بعد أمتار.. لا شاب يلتفت لصبية جميلة مرت أمامه برائحة عطرها الأخاذ، وتنورتها القصيرة جداً.. لا امرأة تبتسم لرجل أعجبها على الرصيف المقابل.. لا بائعاً ينادي على بضاعته ويلحق بك ليحدثك عن تاريخ الأقمشة، وأنت تضحك ليتركك ويلحق بغيرك يحدثه نفس الكلام، الذي حفظه عن ظهر قلب.. لا أصوات أطفال في الشارع، ولا صراخ امرأة تشتمهم كلما سقطت الكرة التي يلعبون بها داخل حديقة منزلها.. لا وجود لحارات ولا مصاطب تمر من أمامها تسلم على أصحابها، ويسلمون عليك دون أن يعرفوك.. لا مخبر يلحق بك ولا سيارة تنتظر في الحارة الخلفية ينزل منها مسلحون لاعتقالك، او لخطفك مقابل فدية.. لا أثر لفرع مخابرات بني خصيصاً بين البيوت السكنية كي يحموا أنفسهم من الشعب، إن حاول مرة الانتفاض لسبب ما!!!!

لا علامات تشير لوجود جواسيس من أهل البلد داخل المقاهي وخارجها متمثلين بماسحوا الأحذية، وعمال النظافة وغيرهم ليراقبون عن بعد مواطناً مثلهم مطلوب التقصي عنه لحمله سلاح غير مرخص اسمه القلم.

لا وجـود أثـر لمواطنيـن يقومـون بسـرقة الكهربـاء مـن البلديـة، رافعيـن بسـرعة زر (الهـاوس) حيـن قـدوم الجابـي لفحـص العـداد.. فقـط فئـة واحـدة مـن حافظـت علـى مبدئهـا... إنهـم التجـار الذيـن مازالـوا يقسـمون بأن بضاعتهـم هـي أفضـل أنـواع البضائـع، وبأن أسـعارهم لا منافـس لهـا.. ومـازال يـرث أبنائـه مقولـة وفعـل.... كل مـن تـزوج أمـي أصبـح عمـي.

المدير المسـؤول يسـتقبل منهـل الذي مر على غرف عدة، فيها الكثير مـن الموظفيـن والموظفات بعد طقوس مـن الاسـتقبالات والانحناءات واللطـف الجـم، الـذي لـم يألفـه فـي بلـد كبلـده.. ربمـا لأنـه يحمـل جـواز سـفر أوروبـي.. ربمـا كانـت أسـباباً أخـرى لا يعلمهـا ولا حتـى هـم!! ربمـا..

يؤسـفني يا سيد منهـل أن أقـول لـك وبعـد الاطـلاع علـى جميـع الأوراق التـي بحوزتنـا.. تبيـن بأنـك لسـت المالـك الحقيقـي للمنزل فـي منطقـة بـاب تومـا.. فلقـد بيـع بيعـاً قطعيـاً لعائلـة السـيد (معتصـم كافـور) بموجـب اتفـاق رسـمي، بيـن والـدك وبينـه.

انتفض منهل عن مقعده صارخاً بعصبية

كيـف حصـل ذلـك ووالـدي متوفـى مـذ أن كان عمـري عاميـن.. وجميـع الأوراق تثبـت صحـة ماجـيء بهـا، وهـي أوراق نظاميـة وقانونيـة سـليمة لا لغـط فيهـا.. سـأقوم برفـع دعـوى عليكـم جميعـاً.. وسأسـترجع بيتـي مهمـا كلفنـي الثمـن.

اقتـرب المدير مبتسـماً بـكل هـدوء طالبـاً مـن منهـل الإنصـات وبحركـة مسـرحية مـد يـده مسـتعرضاً، مخفيـاً يـده الأخـرى وراء ظهـره

أسـتاذي الكريـم.. إن أحببـت رفـع دعـوى فالمحاكـم موجـودة، ولـن يمنعـك أحـد.. لكـن أن تضيـع وقتـك عبثـاً وتهـدر أموالـك دون الاسـتفادة مـن الوصـول لمـا ترجـوه فهـذا أمـر مؤسـف.. وكمـا تعلـم فقبـل عشـرين عامـاً كانـت البلـد فـي حالـة فوضـى عارمـة.. والنـاس كانـت تعيـش حالـة حـرب وهـروب!.. وهـذه الفوضـى تسـببت بكثيـر مـن الـ... وقبـل أن ينهـي

كلامه قاطعه منهل بطريقة جعلت المدير يتراجع خطوات إلى الوراء شابكا أصابع يديه باتجاه ذقنه.. كأن هذا الرجل هارباً من مسرحية وجاء ليكمل دوره هنا..

تقصد بأن البلد كانت في حالة (أمان مبهم) اذ يستطيع أي نافذ مالكاً لسلاح من أي نوع دخول أي بيت، ممكن أن يعجبه ليستقر به أخيراً.. والمهمة تأخذ طابع السهولة أكثر حين يكون أصحاب البيت خارج البلد.. هي لم تكن فوضى كما ذكرت.. بل كانت تفتقر للعدالة وللنظام وللحق.. هي لم تكن فوضى.. بل كانت أطرافاً جعلت منها فوضى إرضاء لساديتهم وقمعهم والتنصل فيما بعد من مسؤولية ماجرى، كما حدث الآن بالضبط.. أعدك بأني سأعيد بيتي المسلوب ولو بعد حين، سأسترجعه حتى بعد موتي.

خرج منهل غاضباً من مكتب المدير المسؤول، والعيون تلاحقه لكن هذه المرة بدون تشريفات.. ولا انحناءات كما كانت قبل قليل.

يتوجه منهل لقاعة الاستقبال في الفندق مشيراً إليهم بإلغاء الحجز.. بعد أن اتفق مع شركة الطيران طالباً منهم تقديم الحجز، لأقرب موعد ممكن.

حين صعد إلى قاسيون للمرة الأخيرة، كانت ماتزال ذاكرته تستحضر العيون التي كانت تراقب المواطن وتصادر أنفاسه، لو خرجت عن إيقاع ضبط نغماته.. ولو حصل ذلك فسيتم استبدال ما اعتبروه بالنغمة النشاذ (بولولة) زمنه عليه.

وقف على السفح.. وبدا له قاسيون كخشبة مسرح تفتح ستائره.. ليتلو حزنه لجمهور من الشجر، والريح، وأرواح أجداده.

أين وجهك الجميل يابلدي الذي شوهناه باستبدادنا، لفرط حبنا وخوفنا عليك.. غادرناك وكنت مازلت تنزفين دون أن نضمد جراحك التي كان يتدفق دمها صمتاً سرياً، فضح رجولتنا المشبعة جبناً وتخاذلاً.. وتنصلنا

من مسؤولياتنا تجاهك تحت شعار يقول... حين تعشق اهرب كي تعطي فرصة لهذا العشق بالتنفس.. وكنا بالطبع كاذبين.. فقط كنا نبرر لأنفسنا ذلك الهروب الجبان، خوفاً من اعتقال جديد أو قذيفة.. يالتعاسة الحظ في ذلك اليوم حين لم تنل منا تلك القذيفة وتحولنا لأشلاء.. فألم الشظايا الغاضب يرتطم كل يوم.. كل لحظة، بذاكرة ندم يشطرنا إلى أجزاء عجزنا عن تجميعها، مثلما عجزنا عن البوح باعترافنا أننا قتلناك وغادرناك تتخبطين بدمك.. كي نحيا.

كنا بهلوانيين في سيرك.. نمشي على الحبال ونقفز على الجدران برشاقة فهد.. أبدعنا بكل أنواع اللعب وكنا ماهرين بالقفز والتسلق إلى أن أصبحنا نحتال حتى على الأخلاق بفتاوى شيوخ، كانت تفتي لنا تحت ستار الشرعية بعد قبض الثمن.

عندما غادرت مدينتي.. كنت كرجل بدائي خرج من المغاور ليلتحق دفعة واحدة بمركب الحضارة في الطرف الثاني من العالم، الذي شهد جوعي ونزفي وألمي، لكنه لم يقدم لي سوى طبق صغير من فتات خبز معجون بدم، قالوا بأنه صحي ويجب علي تناوله، وكان اسمه (الاندماج).. واندمجت رغماً عن أنفي، وتزوجت وأنجبت طفلة رائعة لا تتكلم حتى الآن العربية.. كان خطئي.. لكنها أيضاً ضريبة الاندماج وضريبة العيش في بلاد يجب علي احترام قوانينها.. لا أنكر بأني تمنيت وحلمت بالزواج من إحدى بنات بلدي، لأعوض عما فقدناه في وطننا ولينشأ أطفالنا في أجواء لم نعشها كجيل حلم بكل شيئ ولم يحصل عليه، نتيجة مناخات سياسية واقتصادية، وفساد مستشر وثقافة معلنة تقول لك (جوع كلبك يتبعك) لم يتحقق حلمي بالزواج حين رأيت ويا لهول ما رأيت، غير مصدق كيف تحولت وداعة أغلب النساء إلى شراسة قطة لفظت أطفالها، ومنهن من بعن أزواجهن بسوق النخاسة المسمى تحرر في وطن جديد.. ومنهن من انتقمن من حياتهن الماضية ونزعن كل ما كان يستر أنوثتهن، معتقدات أن الحشمة والأخلاق أعمال منافية للبلد الجديد..

وتزوجت من سويدية عشت معها سعيداً، وما زلت.. لكن للزواج من غريبة ضرائب أيضاً.. فقد فشلت في تدليع ابنتي كما كانت أمي تدلعني بقولها (تؤبرني).. قلتها لابنتي ذات مرة.. لكن الدنيا قامت ولم تقعد حين شرحت لزوجتي معنى هذه الكلمة.. وكادت يومها أن تذهب للصحة النفسية خوفاً على مشاعر ابنتها من أن تتحول لحفار قبور..

للذكريات طعم الموت.. ذكريات تعيدك لعائلة كانت تجتمع ببيت واحد على مائدة طعام واحدة، بهموم مشتركة وفرح مشترك.. ثم احتل مكانهم أناس لا ينتمون للمكان ولا للزمان، ولا يعون معنى الأسرار والأحاديث خلف الأبواب.. وذكريات تؤلمك حين تذكر من هجر قسراً وترك قلبه في بلده.. وذكريات تعيد بمخيلتك من ركض مهرولاً إلى المطارات، ليلتحق بركاب الدرجة الأولى بعدما دفع ثمنها من بيوت سرقها، ومن أجساد أطفال تاجر بأعضائهم.. يا لذكريات مرة نمضغها كطعم الحنظل.

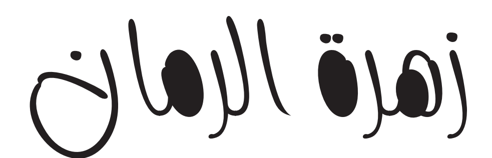
يئن منهل أنيناً متقطعاً.. جاثياً على ركبتيه فارداً يديه للسماء.. صوته يحشرج ببحة حزينة تلعثمت ببكائها.. يعلو أنينه لصوت مسموع.. فصرخة مكبوتة فصرخة شرسة، تهدر كريح وصلت عنان السماء.. وأجهش بالبكاء

أمي.. أبي.. أصدقائي.. جيراني.. أجدادي.. تاريخي.. بلدي.. أين أنتم.. أين أنفاسكم التي كانت تدثرني في ليالي صقيع وحدتي.. أين يدك ياأمي المخضبة بالحناء أين صوتك الطاهر النقي الذي لا يتوقف عن الدعاء والصلاة.. أين أنت لتشفيني من كل ألم وتعيديني وليداً يغفو من جديد على صوت موسيقى أنفاسك. أين أنتم أين أصوات ضحكاتكم.. أين نكاتنا التي كنا نلقيها رغم الوجع ملقين فوق الموت رشة سكر.. أين أسواق دمشق ورائحة توابل البزورية.. أين ماء بردى ونبع الفيجة الذي سقى البلد

ضاحكاً كلما مر أمامه ركاب القطار الملوحين لكل من يصادفونه.. أين الأغاني التي كانت تصدح من البيوت، والجارة التي تنشر الغسيل، والأب الذي يضرب ابنه لأنه كسر نافذة الجيران.. أين دراويش الشيخ محي الدين بن عربي.. أين الحارات الضيقة التي اختبأنا بها عشاقاً.. أين الطفل الذي كان يستعير من بيت الجيران فنجان بن لضيوف أتوا فجأة.. أين أنتم.. أين أصبحتم.. تعالو مرة واحدة كبرق ثم ارحلوا.. عشرون عاماً حلمت بالعودة لأطرق الباب وأقول لكم افتحوااا.

يهمهم منهل وهو يمسح دموعه بكفيه....

هنا في هذا المكان حصلت أول جريمة في التاريخ.. وهنا في نفس هذا المكان سنحاكم جميعنا قاتلين ومقتولين.


زهرة الرمان



زهرة الرمان

أنا القطة زهرة الرمان.. جئت للحياة بعد مخاض عسير عاشته أمي في قصر منيف، المخاض لم يكن سببه الولادة فقط، بل لعلمها بأن سيدة القصر ستختار اجمل قطة ستولد، وتطرد باقي أخوتي مع أمي حين أصبح قادرة على تناول طعامي بمفردي أو بيد الخادمة.

كبرت.. وصار بإمكاني المشي دون أن يرتعش جسدي فقد أصبحت قادرة على اللعب والركض، والتواري والاختباء والزهو بخفة ظلي كلما رأيتهم يسعدون لما أقوم به.

انتقلت لعمر أكبر قليلاً، وجدت به سيدة القصر أنه بات علي الآن أن أعتاد على الحلاق الخاص، وأن أمتثل لأوامر الترزي المسؤول عن اختيار ملابسي بما يتناسب مع لوني، ومناسباتي

أسعدني جداً قرارها، وامتثلت للأوامر.. وأسلمت وبر جسدي للحلاق وجسدي للترزي، وغذائي للطبيب المسؤول.

كنت أنا سيدة القصر الحقيقية، فأوامري مطاعة وحمامي الساخن ينتظر من خدمي الإشارة.. والنوم عبد لي آمره فيطيع..

لكن أموري النفسية اختلفت رأساً على عقب، حين جاءت صديقة السيدة مرة ومعها قطها الجميل.. وكما هي عادتنا نحن القطط فاننا لا نألف الضيف الغريب بسرعة لخوفنا من أخذه مكاننا، فأنانيتنا لا تسمح لأحد بالاقتراب من مملكتنا.. لكنه أخجلني بلطفه مما دعاني للاقتراب منه وشمه قبل أن نباشر حديثنا.

تمشينا معاً في حديقة القصر، ولعبنا بألعاب جيء لي بها من الخارج لعدم توفرها في هذه البلاد.

أحضرت لنا الخادمة الغداء، وحين انتهينا جلسنا على حافة بركة السباحة.. ضحكت طويلاً وأنا أحدثه عن أول مرة اقتربت فيها من الماء مذعورة، لكن الأمور تحسنت بعدها عندما أحضروا لي مدرباً خاصاً ليقوم بتعليمي السباحة والعوم..

وماذا بعد؟ هل ستقضين حياتك في هذا البؤس؟

سألني القط بتذمر..

تقلبت على ظهري فوق العشب أحرك بقوائمي أغصان زهر تنحني كلما لامستها، وأنا مستمتعة بأشعة الشمس أتقلب يميناً وشمالاً متجاهلة عينيه اللتين تأكلان جسدي.

أو تسمي كل هذه الرفاهية بؤس؟ قلتها بلا مبالاة متجاهلة امتعاضه.

نعم إنه البؤس حين لا تفعلين شيئاً، سوى شقاء الدلال.. هل أحكي لك عن سر.

هززت برأسي موافقة.

أنا لم أخلق وبفمي ملعقة من ذهب، كما تدعي مربيتي.. لا تحملقي بوجهي هكذا فترعبيني.. نعم هذه الحقيقة.. كنت فيما مضى مشرداً أتسكع في الشوارع والحارات وفي يوم من الأيام كانت تمطر بشدة وما من مكان ألتجئ إليه.. والجوع أخذ كفايته مني فصرت أموء.. وأموء هائماً على وجهي لا أعلم اتجاهاتي.. والحي الذي خرجت منه أضاع العودة إليه ماء المطر، فكما تعلمين نحن والكلاب نفقد أثر الأشياء في الماء.. وما هي إلا لحظات وتوقفت بجانبي سيارة فارهة نزلت منها خادمة مربيتي تحمل معها قطعة حلوى.. حاولت الهروب لكنها أصرت على اللحاق بي بقطعة الحلوى التي لم أقدر على خطفها من يدها، واستسلمت مقابل قضمة أسد بها رمقي.. وبينما أنا منشغل بالحصول عليها قبضت علي وأدخلتني السيارة ومنها إلى قصرها.

أجابته زهرة الرمان وهي تتلوى على العشب بكسل.

قصتك جميلة وماذا حصل بعد؟

شعرت بغربة حين أحضروني للقصر.. وصرت أبحث عن زوايا لأختبئ بها وفشلت محاولاتي بالتواري والاختباء.. فما يحضرونه لي كان أكبر من الهروب منه.. اللحوم والأسماك والحليب والجبن، والحلوى.. وبعد شهر بالتمام والكمال خفت حركتي صرت بديناً، كما تلاحظين.. أصبح الكسل صديقي ولم يعد لي العزم على إفلات جسدي من كل يد تحملني وتداعبني.. وخارت قواي التي كنت أحارب بها واختفت أنيابي التي كشرت عنها في الشوارع، مطارداً برشاقة قطة هاربة وغاب خبثي، المنتظر أحدهم حين يرمي بكيس قمامته لأنقض عليه بعد أن يذوي.

وها أنا ذا أمامك الآن قط وديع وداعة لا تليق بصفات أجدادي المنحدرة أصولهم لفصيلة الوحوش الشرسة.. فقدت حقيقتي وهويتي حين تحولت من شعوري كأسد، إلى مجرد قط.

ماذا يعني هذا الكلام؟

يعني أن تنتبهي لنفسك.. فما تعيشينه هو مجرد وهم.. فحين تكبرين قليلاً سيأتون لك بقط فصيلته نادرة لتتزوجيه دون أن تستمتعي بغرورك كقطة بملاحقة بقية القطط لك من مكان إلى مكان طلباً لرضاك.. بل لن تملكي القدرة على اختيارك قطاً يناسبك بمحض إرادتك.. وبعد أن تنتهي مهمة عريسك القط ذو الفصيلة النادرة، فإنهم سيعيدونه للمكان الذي أحضروه منه.. وستلدين هرراً جميلات ونادرات، ويطردونك حين تنتهي مهمتك كما فعلوا بوالدتك وسيحتفظون بقط أو قطين، ويوزعون الباقي ولن ينتظروا حتى الفطام فالخدم هنا سيتوكلون بالمهمة..

زمجرت في وجهه وانتفضت على قوائمي.. لأول مرة أشعر بأن لدي مخالب تحت الوبر الجميل.. ولأول مرة أحس بأنيابي حين كشرت عنها بعدما سمعت هذا الكلام.

صرخت بمواء مبحوح..

كيف تتجرأ على قول ذلك أمامي..

زمجر هو الآخر بهدوء مرعب، دون أن يتحرك من مكانه..

أعلم أني جرحتك بكلامي، لكن تذكري أن سعادتك ليست هنا.. فالمال والقصور لن يجعلوا منك سوى آلة للتفريخ، ومجرد تسلية للآخرين وتشاوف أمام من هم بنفس السخافة.

هل عشت مرة في الطبيعة؟ هل جربت أن تقنصي عصفوراً مثلاً؟ هل جربت متعة الانقضاض على بشري يحاول الإمساك بك، ليفلتك حين تنقضين عليه بمخالبك؟ هل جربت الانتصار حين يتهامسون حولك بأنك شرسة، ولن يقدروا عليك؟

هل فكرت يوماً حين تطردين من هذا القصر من أين ستحصلين على الطعام، حين تشعرين بالجوع؟

هل فكرت فيما لو طردوك من أين ستملكين القوة، لو أمسكك طفل صغير من ذيلك وأطاح بك بعيداً ليضحك مع أصدقائه؟ كيف ستدافعين عن نفسك وأنت لا تملكين حتى القرار باختيارك للطعام هنا.. فهنا كل شيئ منظم وهذا لا يليق بفصيلتنا.. نحن خلقنا لنصطاد ولم نخلق ليصطادوننا.. الطبيعة هي أمنا والحرية هي أخلاقنا.. مخالبنا نبرزها في وجه أعدائنا.. نخمش بها يد كل من يحاول فرض نفسه علينا.

هنا أنت سجينة، لا سيدة قصر.. هنا لا مكان لروغانك إلا حين يلاعبونك.. فروغانك هو ليس تخلصك من مأزق.. بل للتهريج.

اخرس قالتها وهي تزمجر محاولة خمشه بمخالبها.

لماذا تستكثر علي نعمتي؟ لم هذا الحقد؟

ماء القط بحزن، وهو يبعد وجهه عن مخالبها.

أريدك قوية وشرسة كباقي القطط المليئة بالشوارع.. هنا أنت رعديدة وأخاف عليك من دلالك، حين يودي بك للتهلكة عندما لا تجدين فيه من يدافع عنك من عبث الأطفال ولا تعرفين استخدام

خبثك وتملصك أمام أرعن يحاول دهسك بسيارته.. أخاف عليك حين يلحق بك أذى وتعجزين عن الوثب مهما كان الجدار منخفضاً.

مئت مواء مريراً وهجمت، على القط الذي هجم علي بدوره نافخاً في وجهي منتفضاً واقفاً على قوائمه الأربعة وكأننا لم نكن صديقين قبل قليل.

ولأول مرة أشعر بمخالبي تتمرد على التقاليد التي علمتني، أن لا أظهر أي فعل تجاه ردة فعل، لكني عجزت حتى عن كتم موائي وصرخت بمواء عجيب

وهل تعتقد أيها الغبي أني عاجزة في البحث عن شخص آخر، يهتم بي حتى لو لم يكن يملك قصراً كهذا القصر؟ حتى الكلاب الأوفياء تفعل ذلك فما بالك بنا نحن القطط.. وقبل أن تنقض عليه حضرت الخادمة مسرعة على موائي وصراخي.. لتحملني بعيداً بعدما نهرت القط.

دهاليز ستي



دهاليز ستي

أوها... ولدت وآمت

أوها... وعلى فراشها نامت

أوها... والحمدلله ياربي

أوها... ماشمت فينا شامت

لي لي لي ليش

وأخيراً أتى الصبي الذي أنقذ أمه (كنة) أم هاشم من زواج زوجها الذي حلف بأغلظ الأيامين بأنه سيتزوج عليها لو كان المولود بنتاً رابعة.

بوجهها الأبيض الجميل الذي تغطيه مساحيق التجميل.. وشعرها المزين بمشط الماس الذي يبهر النظر كلما انعكست عليها الأضواء الممدودة بحبل في أرض الديار.. تستقبل أم هاشم قادمة أخرى وتجلسها بالمكان المخصص لها ثم تستأذنها لاستقبال باقي المدعوات.. أصوات النساء وأحاديثهن تتعالى في البيت الكبير التي تتوسطه بركة الماء ونافورتها المنسجمة مع الضحكات الموزعة على أحواض الزريعة المليئة بأنواع من الورود كالشب الظريف والأضاليا والهرجاية والفل والجوري الأحمر والأصفر والزهري والهوى الخشن والهوى الناعم.. والياسمين الذي تضمه الفتيات الجالسات على طرف الساقية بالإبرة والخيط لصنع عقود يوزعنها على النسوة المحتفلات.

رنات الذهب المسموعة رغم الضجة الحاصلة تحكي عن دلال النساء ورفاهيتهن وقلما تجد بينهن امرأة نحيلة فالنحيلة تدل في غالب الأحيان على الزوج البخيل.. وأما المرأة المكتنزة فيسمونها (بزرة بلدي).و(ملظلظة) وأما مقياس الجمال فيعبر بالبياض والعيون

الملونة ولو صادف أن وجدت امرأة أو فتاة لونها مائل ولو قليلا للسمرة فيسبق هذه الصفة كلمة (ياحرام) دلالة على الشفقة.

أحاديث تدور والنسوة يشكلن مجموعات كلاً على حدة وكلاً بحسب اهتمامها للحديث أو القصة.. أم حميد في هذه الأثناء مازالت تدوزن العود وكأن النساء اعتدن عليها لذا لاتجدهن يستعجلنها بالغناء فالقرار بيدها ريثما تنتهي من شرب مغلي اليانسون وتدريب صوتها قليلاً وتجربة المقامات ريثما ترسى الأغنية المنتقاة على بر مع العلم أنها لاتبدأ بالغناء إلا حين تسأل النسوة عما يردن سماعه.. فلو طلبن أغنية ياحنينة تراها تبتسم وعندما يتهيأن النساء لسماع ماطلبنه تراها قامت بغناء تعي عالفي.. على كل حال هذا لايهم طالما أنها لاتخرج من الحفل قبل تأدية جميع الأغنيات والطقاطيق.

ما إن تبدأ أم حميد بالغناء حتى ترى النسوة عدلن من جلساتهن وبدأ التصفيق والرقص والتحدي من بإمكانها لفت النظر أكثر على الرغم من أن الراقصة التي بدأت تتمايل على النسوة كانت قبل قليل ترفض الرقص بحجة الخجل.

تعيد النساء وراء أم حميد

تعي عالفي تعي عالمي بدي شوفك مرة ويفرفح قلبي شوي

البيضا قالت أنا عيوني كبار

فرحانة من الله بشعراتي هالطوال

روحي ياسمرا ياشعرك شعر جوار

بتروحي عالحمام مابينبل بمي

تعي عالفي تعي عالمي بدي شوفك مرة ويفرفح قلبي شوي

السمر قالوا نحنا شوعملنا

يالوز محمص وغالي تمنا

روحي يابيضا ياشنينة لبنّا

يا كوسا بتشرين بتعسقل بالفي

تتعإلى ضحكات النسوة.. ويطلبن المزيد وامرأة توشوش جارتها قائلة

شوفي ضرتي حلفتك بالله مابتشبه راس اليخنا بسوق الأحد.. وتنفجران بالضحك

حمي وطيس الجلسة وأطلقت صيحات النسوة والتصفيق والتشجيع عندما غنت أم حميد

هزّا ياجميزهزّا.. تفاح الشام حلو وإلو لذة

مال علي وشوشني

كلامو حلو حلو حلو وإلو لذة

جبلي الألماس يلبسني

على عنقي ويرشرشني

مال عليي وبوسني

لقيتو حلو حلو حلو وإلو لذة

توزع زبادي البوظة المعجونة بالقشدة والفستق.. وتعود النسوة للأحاديث ريثما تستأنف أم حميد الغناء.

وبعد الانتهاء تقوم كل بدورها لتنقيط النفساء في غرفتها المؤلفة من خزانة خشب مطعمة بالصدف المكنر بالفضة يعلوها تاج وتتوسطها مرآة بطولها.. وكذلك الأمر بالنسبة للسرير الواسع المفروش بغطاء حريري مرشوش بحبات اللؤلؤ والذي يغطي نصف جسد النفساء المرتدية قميص نوم من الساتان الأبيض المطرز بالدانتيل الفاخر والذي تكاد تضيع فيه العين بين بياضه وبياض لون بشرتها وهي مبتسمة مشرقة وزاد في إشراقتها ومكانتها أنها أنجبت الصبي فهي الآن تستطيع التحكم ببعض الأمور في مخدع الزوجية بعيداً عن معرفة حماتها طبعاً. وعلى رأي المثل (أم البنت مربوطة بخيط وأم الصبي مسنودة بحيط)

زكية تهبط الدرج حاملة طست الغسيل متوجهة به إلى المربع لترتيبه متجاوزة أختها فخرية التي تملأ سطل الماء من البحرة لتسفحها بأرض الديار بعد أن غسلت الشجر وسقت أحواض الزريعة وعبد الغني ذو الخمس سنوات يهرع لفتح باب الزقاق

يامو يامو إجت أم عفيف..

عيب ياولد ئول خالتي أم عفيف كم مرة نبهتك للكبار بتئلهن خالتي فهمت؟

تقولها وهي تخرج من المطبخ ممسكة بيدها فوطة تجفف بها يديها لتستقبل أم عفيف (نص الدنيه) وهذا اللقب سببه نقلها للأخبار من الحارات والأحياء المجاورة فهي تسكن وحيدة بعد أن زوجت بناتها وأبناءها وتوفي زوجها ولم يبق لها إلا زيارات البيوت وتقصي الأخبار ونقلها من بيت لبيت...

زكية ابنة الثلاثة عشر عاماً انتهت من ترتيب الغسيل وأحضرت شراب التوت البارد إلى الليوان.. كانت تختلف عن شقيقتها فخرية التي تكبرها بعامين فالأخيرة لا تسأم من التطريز وما إن تنتهي من مفرش طاولة حتى تجدها بدأت العمل بالستائر أو مفارش للسرير لجهاز عرسها.. ومثل هذا الامر يصيب زكية بالملل فهي كثيرة الكلام والحركة وسريعة الانفعال تملك سرعة بديهة نادرة ولاتتوانى في الدفاع عن نفسها إذا دعت الحاجة.. كثيرة الضحك ولجوجة ينفذ صبرها بسرعة وهذا يخيف أمها على مستقبلها حين تتزوج فعائلة الزوج تبحث عن فتاة مثل فخرية عاقلة ورزينة ولاتتكلم إلا للضرورة.. تبتسم من غير ضحك وتحزن من غير بكاء و ترتبك بمواساة أحد إن تطلب منها الأمر ذلك.. فحساسيتها مفرطة وتخاف أن يوجه لها أحد كلاماً لأنها عاجزة عن الدفاع عن نفسها لذا تجدها انطوائية أكثر منها اجتماعية كما زكية.

يطرق باب الزقاق من جديد عبد الغني يركض ليفتح

يامو يامو إجت أختي بدرية.. زكية وفخرية تركضان لتحملان عنها ابنها

البالـغ مـن العمـر العـام ونصـف العـام وتتخاطفانـه بينمـا عبـد الغنـي يجـر البطيخـة التـي وضعهـا زوج بدريـة قبـل أن يذهـب بكلتـا يديـه لكـن عبثـاً يحـاول حملهـا تسـرع زكيـة ناحيتـه وتحملهـا يبكـي عبـد الغنـي مسـتنجداً بأمـه التـي تتقـدم إليهـم بجسـمها المليء المكتنـز والمخمسـة تهـز علـى صدرهـا وتحمـل ابنهـا واضعـة يـده تحـت البطيخـة التـي تحملهـا زكيـة موهمـة إيـاه بأنـه هـو مـن حمـل البطيخـة ثـم يسـقطانها هـو وزكيـة فـي البحـرة

بالمسـايرة لـك أمـي اللـه يرضـى عليـكِ أخـوكِ صغيـر كل عمـرو خمـس سـنين

تقول هذا الكلام وهي تضعه على الأرض.. نزيل تئبرني نزيل.

زكيـة قادمـة وبيدهـا رزمتـان مـن السـلق الأخضـر طالبـة مـن أم عفيـف سـرد حكايـة.. تزاورهـا أمهـا بطـرف عينهـا مؤنبـة

إنتـي مابتعرفـي تئعـدي عائلـة متـل أختـك فخريـة اسـم اللـه عليهـا الهـا تـم ياكل مالهـا تـم يحكـي

أمي شو حكيت والله ناطف ألبي على ما اسمع

إي نئبري لكان وعـدي ساكتة وخيطـي تمك ولـي علـى عيون هالجيل شـو جئر

تتدخل أم عفيف معاتبة

يوه شـو حكـت البنـت حوطتهـا بآية الكرسـي شـو دماتهـا خفـاف تكرمـي تعـي احكيلك هالقصة

بدرية منصتة وفخرية انضمـت إليهـم مـع ابن شـقيقتها بعـد أن نادتهـا الأم كـي تسـمع الحكاية

سمعونا الصلاة عالنبي قبل ما بلش

اللهم صلي على سيدنا ونبينا محمد

هـادا يـا سـتي كان فـي بزماناتـو مـرى اللـه بلاهـا برجـال بخيـل دائـت

من وراه الأمرين.. لدرجة انو كان يعد عليها عدد ورءآت اليبرئ اللي كانت تطبخو.. وكان مانع الجارات من الفوتة لعندها.. مشان ما تضطر تئوم بواجبهن أو تضيفهن شي.. وما نفع مع هالزلمة شي انو يغير ولو شوي من طبعو.. بنوب بنوب عبس (عبث).. بس البخل مرض الله يجيرنا منو ويجير السامعين وعلى رأي المتل (العلة يلي بالبدن مابيغيرها غير الكفن).

هالمرا مافي يعليي غير تنحف شي من ئلة الاكل وشي من الهم وصارت تبيّن هالمسكينة انها اكبر من عمرها بعشر سنين وتئولو اكتر.. طلبت الطلائ أكثر من مرة بس المأوص ما كان يرضى مو محبة فيها.. لاااا ابداً بس كان يوم يشاورعئلو شو يئللو عئلو ياحزركن

شو كان يئلو بالله احكي لا تنطفيلنا ألبنا

اي نشف ريئي وأنا عم احكي

فهم الجميع ما قصدته أم عفيف وتوجهت الأنظار إلى أم خيرو التي توجهت نظراتها لابنتها زكية التي فهمت الأخيرة بدورها احضار شراب التوت

تنظر زكية إلى أم عفيف وقبل أن تبدأ بالكلام تجاوبها وهي تضحك بأنها لن تكمل القصة قبل مجيئها

طافت زكية على الحاضرات بعصير التوت البارد وهي تردد في داخلها

يلا كرمال الله بدي كمل الحكاية.. يعني هلأ لحليلها لأم عفيف ينشف ريئها هففففف

رشفت أم عفيف من كأس العصير وتابعت تقول

المهم يا ستي ما انتي هالزلمة شاور عئلو وعئلو ئللو

ازا انت طلئتا يعني انك خسرت كل لئمة اكلتها عندك وكل صابونة تحَممت فيها.. وإزا طلئتا لازم تتجوز والجْواز يعني مصاريف وبدو خرْج كبير وبيجوز العروس الجديدة ما تئبل بأوضة النوم العتيئة اللي نامت عليها ضرتها يعني بدك جهاز عرس من اول وجديد وبيصير بدها تغيّر

بالبيت ازا ما عجبها شي وهاد لسا عندك المتئدم والمتأخر وملبوس البدن والدهب وعزايم وسفر اكل رايحة ومحلي جاية

هالزلمة عئلو ماحملو وهو عم يضرب اخماس باسداس وتلائيلك ياه رجف ورح يجيه فالج وهو عم يفكر

لا لا لا لا يالطيف شو طلئها أعوذ بالله ولي ايه إذا كان هالموس بدو يحلئ شعرتنا خليها تصل لركبتنا

تشهق النسوة ويضحكن ضحكات ممزوجة بالخجل والأسف على المرأة المسكينة وزكية تطلب منهن أن يصمتن لتكمل أم عفيف الحكاية

هادا ياستي ما انتي بيوم من زات الايام طلب هالرجال من مرتو انها تزور ببيت أهلها لانو مضطر يسافر ليومين بشغل والله لبست هالمستورة ووصلها وتيسر بطريئو

ومن وئت اللي وصلت لبيت أهلها وهيي حاطة الحزن بالجرن وعم تصفن.. وئبل ماتنام خطرتلها فكرة مابتخطر على بال بليس وئالت لحالها (العلة يللي مابتعرفلها دوا.. بالنار داويها)

تنفست النساء الصعداء وبصوت واحد يالطيف شو بدها تعمل ياترى..

مرئو اليومين والرجال اجا لبيت حماه ودئ الباب على بِنى ياخد حرمتو ويتيسروا عالبيت طلب منو ابوها يفوت يشربلو فنجان ئهوة او كاسة شاي بس الزلمة اعتزر بحجة انو تعبان وبدو يرتاح من السفر

ويالطيف عينكن ما تشوف هديك الشوفة يوم يئمز وينط وعيونو مفنجرة بئّت لبرا متل الجوزة يوم ئللو ابوها انو مرتك مو هون ومن مبارح راحت على بيتها، ورجع هالزلمة يا كبيا يا دعسا ووصل على بيتو وما حدا أخو حدا، ولسا ما إن دعس عتبة الباب ويسمعلكن صوت مزيكا وعود وغنه، ويالطيف يالطيف على هديك الشوفة هللي شاف مرتو فيها وحوليها الرجال هللي عم يسفئ وهللي عم يئول

الآه وياليلي وهللي عم يتمايل على صوتها وهيي عما تغني ومغندرة ومبودرة ولابستلكن الملون والمئصب

شهقت النسوة وتذمرن من تصرفها المعيب ومنهن من أخفت وجهها بكفي يديها وأم عفيف تضحك وقد أثار ضحكها اهتمامهن لاكمال القصة

هالرجال ركَبو ما عاد حملتو وسابت مفاصلو من هالشوفة وصار بدّنو يرجف متل ورئة العريشة ئبل ما تهر وبزئ بوشها وهو عم يئول ولك تفووووه عليكي وعاللي رباكي، لك الله لا يوفئك فضحتيني لك الله ينتئم من هللي دل أمي عليكي، شوفي وليه عاطلة شوفي لك عايبة أنا مالح أكسب زنب بدمك بتنئلعي عند اللي رباكي وبتمسحي عملتك بشواربو.. لك انتي طالئ طالئ طالئ بالتلاتة وبالتسعة وبالعشرة وان حللك شيخ يحرمك عليي ألف

أصوات النسوة تتعالى بين مستنكرة وبين ممتعضة وبين شامتة وبين حزينة من الموقف.. وهمهمات مجتمعة تستغفر ربها وكأن كل واحدة منهن تداري سوءة ما!!

تلمضت أم عفيف بعدما رشفت من كأس العصير مكملة قصتها والنسوة عيون جاحظة تنتظر التتمة.

وهون ياخواتي بلشت هالمستورة وقبل اكمال حديثها قاطعتها أم عبدو محتجة بغضب تقول..

الله يسامحك آم عفيف هي بدها جورة، روحي الله يسامحك الله يسامحك بعد كل هللي عملتو لسا بتئولي عنها مستورة؟ منللا السترة هي؟

ضحكت أم عفيف وأجابتها

لك انتي ليش بتخطفي الكباية من راس الماعون.. صلي عالنبي وسمعي للأخير

اللهم صلي على سيدنا محمد.... يقلنها النسوة بصوت واحد

أي بنرجع لحديسنا (حديثنا) هالمستورة ما إن سمعت بالطلائ وتلائيلكن ياها بلشت زلغطة وأشرت عللي ئاعدين يئيمو الشوارب ويشلحوا الشراويل

وبصوت مرتفع وبضربة من يدي ام عفيف على ركبتها وبجسد رمته للأمام قالت..

لك مو تاريلكن هالملعونة عاملتها حيلة وكل هللي كانوا ادامها شي جاراتها وشي اخواتها؟

النسوة يضربن كفاً على كف ضاحكات منهن من تقول

ولي على كيد النسوان

وأخرى تقول

حلال عليها والله مو عيشة مع بخيل

ووسط ذلك كله يركض عبد الغني ليفتح الباب ويعود قائلا لامه

يامو يامو إجت جارتنا حسنية

عيب يامو عيب، ئول خالتي حسنية كم مرة صرت مفهمتك..

ولم تكد النسوة تنهض لاستقبالها حتى بادرتهن بالقول وهي ترفع عن وجهها

والله ماحدا بيئوم

نظرت الحاضرات إليها وهن يتساءلن، مابال هذه الكدمات التي على و جهها

حسنية تبكي، وكأنها كانت تنتظر لحظة سؤال كهذا بل إنها جاءت خصيصاً لتفرغ ماأصابها من ألم ووجع وقهر لكنها في قرارة نفسها تمنت لو لم تكن أم عفيف هنا فمجرد وجودها يعني أن شمس يوم غد لن تشرق إلا وحكايتها ستتناولها حارتين أو ثلاثة على أقل تقدير.

شبكي لك حسنية ولي عليي عليكي ليش هيك مزرئة ومورّمة ولك بنتي

قالتها ام عبدو وهي تتفحص وجه حسنية عن قرب

جـوزي جـوزي طعمانـي ئتلـة حَشْـكْ ولَبكْ والله وكيلكـن هـي مـو أول مـرة بـس كل مـرة بئـول لحالـي يابنـت اسـكتي وطولـي بالـك إلا مـا اللـه يهديـه.. بـس عبـس (عبـث) لاتتعَبـوا واللـه واللـه كل ئتلـة بفلـس ومـن كعـب الدسـت ووين بيِجعـك

الله يكسر إيديه يارب مـو حـرام عليه.. تقولهـا زكية وهـي ترتجـف غضباً وشفقة عليها

وليـك اللـه يكسّـر سـنانك نشـالله ويشـل لسـانك ئومـي مـن خلئتـي نئبـري عالمطبـخ يـا ئليلـة التربايـة.. تقولهـا والدتهـا زاجـرة

تنهـض زكيـة مسـتنكرة فوجودهـا فـي المطبـخ الآن يعنـي أنهـا لـن تسـتطيع سـماع بقيـة قصـة حسـنية

أم خيرو تبادرها بالسؤال عما حصل حتى قام بضربها هكذا..

حماتـي ياخالتـي حماتـي اللـه لايأشـعها الخيـر متـل حيـة التبـن بتئـرص وبتخبـي راسـها وعـم تحشـي براس جـوزي ئـال شـو، ئـال أبـي مابيطلـع مـن الئهـوة وانـو سـكّير خمّير لـك مشـان الله انتـو جاوبونـي لـك أنـا شـو دخلنـي إذا اللـه بعـدي اسـمو بـلاه هالبلـوة

لاحـول ولاقـوة إلا باللـه إي واللـه انتـي شـو دخلـك يعليـي لتروحـي بجراير وفعايـل أبوكـي.. اللـه يصلحـو ويهديـه وجـوزك لـك بنتـي مافـي براسـو عئـل طيـب؟ ولا ليكـون انتـي عاملتيلـك شـي عملـة مـع حماتـك وطلعـت براسـو وتفشـش فيكـي بحيلـة أبوكـي؟

لا والله ياخالتي أم الخير الله بيشـهد عليي مئيمتها بالحمد ومئعدتها بالتنا.. بعاملها متل اللي طالع عالسلم بئبئاب وعلى ئولة أمرك وحاضر، بـس هيـي ولـي علـى عيونهـا مابتيبـن معهـا المنيحـة واللـه واللـه اذا بلّحسـها العسل بتعضللي إصبعتي.. هيي مابتطيئني وبتكرهني نشـالله بتكرهها أواعيها... إلهي يبعتلا داء الفشة ليريحني منها هالنسة والها.

زكية قادمة بكأس من شراب الليمونادة ليس من باب تقديم الضيافة

بل فرصة للجلوس وسماع القصة ولكن مع الأسف لم تسمع حديث حسنية لا يهم فالقصة كما بقية القصص يعاد تكرارها حتى تأتي قصة أخرى تطمس معالم القصة التي سبقتها

أم الخير تنظر لزكية فالحديث الذي دار بينهما بالنظرات اختصر كل شيء.. وكانت آخرها بأنها ستحاسبها بعد أن يذهب الضيوف وختمتها بإشارة من يدها بضم أصابعها الخمس مع بعضهم علامة تهديد ثم أشرت باصابعها على فمها وكأنها تمسح شفتيها... فهمت زكية الاشارة ورفرفت بعينيها علامة الخضوع للأمر.. هذا كله تم بثواني وبدون أن يلاحظ أحد

تقترب زكية لتناول حسنية الشراب

تقول حسنية وهي تبكي

مابدي اشرب شي لك جيبولي سم اشربو واخلص من هالعيشة

استغفري ربك يابنتي شو هالحكي هاد، بدك ربك يحاسبك؟ تقولها أم عفيف محاولة التخفيف عنها لكن لأم عفيف طريقة أخرى بالمواساة وطريقتها تكمن في سرد حكاية تتقصد من ورائها النصيحة والرشد لذا قالت لها

اشربي الليموناضة ورَوْئي دمك ورح احكيلك قصة بتعجبك كتير

قبل أن تبدأ كلامها سمعن طرق الباب، عبد الغني يركض ليفتح

يامو يامو اجت أم سعدو

عيب يامو عيب قول خالتي كم مرة نبهت عليك تقول للكبار خالتي

أم سعدو تسلم على الحاضرات وتقّبل كل واحدة بدورها بعد أن ناولت فخرية طبق التين المقطوف قبل قليل من بيتها وما إن همت بتقبيل حسنية حتى بادرتها الاخيرة

ايه ايه دخيلك شوي شوي عليي

خير شبك؟؟ غليتيلي قلبي

زكية تعدل من جلستها فمجيء أم سعدو سيجعلها تسمع القصة التي خسرت سماعها قبل قليل

تكرار قصة حسنية ضيع الفرصة على أم عفيف لسرد حكايتها.. لابأس فحكاياها لاتنتهي ولن تذهب حسنية قبل أن تكون النسوة قد غسلن لها همومها بماء النصائح واكسير الأمل

زكية تشهق ضاربة بكف يدها على صدرها ووجهها محتقن بالغضب والاستنكار. يلتفتن النسوة مندهشات ومتسائلات عما حصل لها وقد أصابهن الفزع

تصرخ وهي توجه الكلام لشقيقها عبد الغني

لك ليش عم تكسر الجوزة بنص الديار

يد عبد الغني الحاملة قبقاب فخرية والتي كان يكسر بها تيبست مكانها وكذلك الأمر بالنسبة ليده الأخرى التي كانت تضع الجوزة على الارض ودهشته منعته من الحركة وبقي على حاله في وضعية القرفصاء وعيناه مفتوحتان على آخرهما ينظر إليها وقد فغر فاه عاجزاً عن النطق وحتى عن ابتلاع ريقه

عندما رأت الأم ذلك اشتد حنقها وغيظها وأمسكت بأذن ابنتها تفركها بأصابعها قائلة لها من غير اهتمام لألمها

ولي على عيونك شو بدك تسببيلو بالريئان من الرعبة للصبي؟

لسا حاطة حطاطك من حطاطو كأنو ئدك زودتيها كتير ولعب سمي منك ها

دفعتها وسط تدخل النسوة بإبعادها عنها قائلة لها

روحي نئبري من وشي وياويلك اسمع حسك صوتك بتخفيه فهمانة؟

تبتعد زكية باكية وهي تقول

والله انكسر ضهري بشطف أرض ديار شو حكيت أنا آآه، بشو أذنبت أنا؟

ثم ذهبت وهي تهمهم بصوت لا يسمعه غيرها

ابن فرفور وذنبو مغفور، كأنو ازا حاكيناه شي رح تهر الطرة تبعو.. ولي على حظي أنا

يبليني بحمى اللي تسلئني شلون رعبتو للصبي تقولها الأم وهي تمسح على رأس عبد الغني وتقبله

كمّل تئبر أمك كمّل يجعلو عوافي وصحة لاترد عليها تكّفني

يكمل عبد الغني ماكان يقوم به وكأن شيئاً لم يكن

تعتذر أم خيرو من الضيوف عما حصل لكن أم عفيف تقترب لها هامسة

بيني وبينك وما بخفيكي سر.. زكية بسم الله عليها نشالله ازا نطلئ نصيبها مارح بينخاف عليها ببيت الاحما ...والله بهْكَل هم فخرية هللي الها تم ياكل مالها تم يحكي على رأي المتل.. جوزي بيحبني قوية وأهلي بيحبوني غنية وجيراني بيحبوني إيدي سخية

تجاوبها أم خيرو

وكمان لا تنسي اختي ام عفيف انو العروس بعئلها وئلة اكلها

جاوبتها آم عفيف

ايه أنا معك اختي ام خيرو بس كمان الكلام بيندائ متل الاكل مشان هيك الله يرضى عليكي نادي لزكية يعليي انخزت ادام الئاعدين ناديلها اجبري بخاطرها خطَيْ.. تقولها أم عفيف مستعطفة أم الخير

تكرمي هي بس مشانك ها

أم الخير تنادي يامو زكية تعي خلص

وتضحك قائلة بحنان وحب

ولي عليها هالبنت شو ئوية الله يآتيهن بالحظ هنه وبنات أمة محمد

آآآمين تطلقها أم سعدو بحرقة قائلة

الله لايحرم الحظ لمخلوئ بس آآآآآآخ من وين بدها المنحوسة

تجيبو.. ئال

المنحوسة حطت إيدها بسلة العنب طلعتلها بصلة..

تجاوبها حسنية

اي والله ياأختي الحظ يوم بدو يجي بيكسر الباب

لك شبكن انتو التنتين متل النواحة والردادة هاتي لشوف أختي أم سعدو شو وجعك

شو بدي احكي لأحكي يا أم خيرو خليها بالئلب تجرح ولاتطلع لبرا وتفضح

يوه، والله زعلتيني عليكي وغليتيلي ئلبي احكي لك اختي احكي فشي ئلبك بترتاحي

تتنهد أم سعدو بعد أن انتهت حسنية من سرد ماحصل معها ثم تقول وهي تطلق زفرة تحكي عما يخبئه قلبها

ياما أحلى الئتل والضرب ياأختي ادام ماتشوفي جوزك عم يروح من بين ايديكي وعينك عم تطلع ومو طالع بإيدك شي

يالطيف.. أعوذ بالله.. شبو خير مخَسْتِك يعني؟

جوزي مختسك بعشئ بنات المئدور اللهم عافينا

أم الخير تومئ برأسها لزكية كي تلحق بأختها فخرية لتساعدها بالمطبخ وهذه علامة على طردها من المجلس بلباقة إذ من غير المستحسن سماع هكذا أحاديث أمامها فهي لم تتزوج بعد ولايجوز لها الجلوس أو الاستماع

قبل أن تذهب طلبت منها أمها إفراغ الطاولة من الكؤوس وغلي القهوة وإحضارها فخلال هذا الوقت التي ستعود فيه زكية تكون أم سعدو قد انتهت من كلامها

تتابع أم سعدو كلامها الذي تنحنح وتلعثم بالبكاء وذقنها ترجف كوجه طفل ببداية بكائه شارحة ماحصل معها وكيف اكتشفت خيانة

زوجها.. لكنها تعدل من جلستها رافعة رأسها رافضة لدموعها بالنزول

هالزلمة صار يغيب عن البيت كتير.. ومايرجع إلا مع جهجهة الضو، الشغلة زادت كتير ولعب الفار بعبّي وخصوصي انو ماعاد ئرب علي متل أول ومابدو مين يئلكن يعني أنا مو مئصرة شرواكن مع رجالكن.. البسلو هالأحمر وهالزهري والأسود والأبيض، وبتخلص علبة مكّي بتحضر وحدة مكانها.. يوه شبو هالرجال مافي إلا بتلاقيه صفنان وكأنو هموم الدنية راكبتو..

تطلق زفرة موجهة كلامها لأم عفيف وكأنها تقوم بتذكيرها من غير أن تشعر بأنك لست وحدك من فقدت زوجها وباتت تنام لوحدها بل حتى الأحياء لهم نصيب مما لك

بآخر فترة لك ماعاد التفتلي بنوووب.. ئلت والله يمكن هالزلمة مَعْمللو عمل.. وكل ما إجي بدي روح لعند الشيخة أم عارف ئوم اتزكر كلام أمي الله يرحمها يوم كانت تئول للسان غلب الئلام (الأقلام) المهم مالكن بطول السيرة

يوم من الأيام بيندئ الباب وإذ بجارتنا أم عاشور مرت أب عاشور الأزعر

تقاطعها حسنية

إي عرفتها هاد جوزها البابا حسن يالطيف شو سيطو عاطل الله يعينها عليه والله هيي آدمية مسكينة على هالجوازة اللي جوزوها ياها ولي علي عليها ياحوينة هالجمال يروح لواحد متلو

تقاطعها بدرية قائلة

ايه حكيك مزبوط بس كمان لاتنسي متلو متل أبوها ولي على عيونو أديش عزّب أمها بسوسة النسوان كمان ئليل ماتعذبت وعلى ئولة المتل.. الأب عشئان والأم غيرانة والبنت بالبيت دايرة بيناتهن وحيرانة.. لأ وفوئ كل هاد ماتاب لحتى اجاه الشلل

تهز رأسها وتزم فمها مكملة كلامها..

والله يمكن من دواعيها عليه

سَمْعونا خللي المخلوئة تكمل حكيها، اي أختي أم سعدو كملي

فاتت هالمخلوئة وئالت لي، عندي الك خبر بس مابدي تزعلي المهم حكتلي انو جوزها أبو عاشور شايف أبو سعدو فايت عند وحدة من بنات المئدور.. وكان فيني عئل وطار وسالتها

وبركدن (ربما) جوزك كان عم يكذب عليكي

ئالتلي يوه ليش ليكذب .. أنا جوزي الكل بيعرف ئصصو يعني بدك ما تواخزيني.. ئال أمك شافت أمي بالسر ئللو أمك شو عم تساوي هنيك.. بعدين هديك الحارة خص نص مابيفوت عليها إلا اللي ئاصد بيوت المئدور اللي فيها.. أنا الله بلاني وكانّة على عشّي وئاعدة ومو طالع بإيدي شي ومو منئص عليي وعلى ولادو شي.. بس جوزك معروف عنو لالو روحة ولالو جية وبحالو بس ليش هيك صار.. والله ساعة اللي حكالي أبو عاشور انفلجت وماسدئت ايمتى يطلع الضو ويتيسر جوزي على شغلو واجي احكيلك.

المهم مالكن بطول السيرة استنيت الليل لاجا جوزي وأنا عئلي عم ياخد ويجيب.. احكيلو مااحكيلو احكيلو مااحكيلو ئلت يحالي ليش لحتى ما احكي وعواض ماتئللا كش اضربها واكسر رجلها، وبعد ماتعشى بئّيت البحصة

أبو سعدو بالحارة عم يحكو إنك عم تروح على بيوت المئدور اللهم عافينا مزبوط هالحكي؟

وفزّللكن هديك الفزة تقولو ئرصتو حية

ومينو حكالك هالحكي من وين سمعتيه جاوبي أحسن ما أحسب الله ماخلئك

وشبك هيك عصبت معناتا مزبوط هالحكي

اي ستي مزبوط شو بدك تعملي يعني.. وأنا سمعت هالحكي ومتل هاللي كَتْ فوقي تَنَكِةْ مي سخنة وطئيت من البكة متل البيضة،

أنا أبكـي والأرض تسئي.. ابكـي والأرض تسئي ويحـرم مـن عليـه إذا جبـر خاطـري بكلمـة بالعكـس فـز علـى حيلـو وهجـم علـيـي فـوئ منهـا بـدو يضربنـي ئلتللـو واللـه منيـح يـا أبـو سـعدو فـوئ مـو غلطـان بـدك تضـرب كمـان، ضربنـي وبكـى وسبئني واشـتكى؟.. لـك بشـو مئصرة عليك أنا آآه، مابيكفـي متحملـة شـكوكك وظنونـك ايـوااا مـن هيـك بتشـك وبتظـن مـن الشـوفات اللـي عـم تشـوفها ومـن هالنسـوان العاطلـة اللـي عـم تعاشـرهن وماشـفلكن إلا هجـم عليـي متـل التـور الهايـج ووين بيوجعـك

نسـوان العاطلـة ئلتيلي مـو هيـك؟ صرلـك لسـان تردي عليي فيه يابنت الكلـب؟ كلكـن جنس عاطـل ومافيكـن وحـدة منيحـة ولـك بتعيشـو عنـد الزلمـة وبتاكلـو مـن خيـرو وبـس يمـوت بتتجـوزوا غيـرو.. روحـي نئبـري مـن وشـي مابـدي شـوف خلئتـك اللـه يلعنكـن ئشـة لفـة جنـس عاطـل مابيتئمنلـو تفـووه عليكـن جنـس نـس

ييه يالطيف على هالحكي ياعيب الشوم عليه ليش هو ترك للنجاسة شي؟؟

تقولها أم الخير وكان واضحاً الغضب علـى وجههـا.. تبادرهـا أم عفيـف بالسـؤال لـم لـم تذهـب لبيـت أبيهـا وتشـرح لـه ماحصـل علـه يسـاعدها أجابتهـا

ومين ئللك مارحـت تاني يوم؟ بس الله يسامحو لأبـي ليش بيسـترجي يتنفـس اذا مـا أخـد الإزن مـن سـت الحسـن مرتـو.. آآآآآآآه اللـه يرحمـك يـا أمـي لـو كانـت عايشـة ماكانـت خلتنـي انضـام وكانـت جبـرت أبـي يلائيلـي حـل بـس سـدئ ميـن ئـال يلـي بيمـوت أبـوه عالمراتـب حطـوه وهاللـي بتمـوت أمـو عالمزابـل ودّوه..

تتنهد حسنية مجيبة

اي والله بعد الأم حفور وطم، المهم كملي شو صار ببيت أبوكي؟

كان عـم يعيـد شـو عـم تحكـي مرتـو متـل البهبهـان ئـال هـاد جـوزك و انتي مئصـرة لأن الرجـال مابتطلـع عينـو لبـرا اذا كانـت مرتـو كافيتـو.. ئومـي

ارجعي لبيتك لأن الحردانة بتروح ثملة بترجع صيبانة.. وهاد جوزك يعني ثبرك وبدك تتحمليه وتصلي وتدعيلو

مابعرف شلون انتفضت منو ومنها وجاوبتو وأنا عم اطللع فيها لهالعثربة

ايه صوم وصلي بتركبك الثلة.. وهيك صار فينا

من يومها وحلفت يمين ماعاد احرد لو شو ماصار وليكني ثاعدة وصابرة وعلى رأي المتل نار جوزي ولا جنة أهلي

ولي عليي عليكي يا أم سعدو كل هالشي مخبيتيه بثلبك وانتي هاللي بيشوفك بيفكرك مرتاحة ومافي غير بتضحكي ومافي على تمك إلا الكلمة الحلوة والنكتة الظريفة ولي عليي عليكي شو حاملة بهالثلب معليش إلا ماربك يهديه ويفرجها عليكي

تجاوبها أم سعدو ضاحكة رغم حزنها

اي ثولتك إلا مايجي عالحزينة يوم تسفئ بعرس جارتها....

ضحكت ام عفيف محاولة التخفيف عن ام سعدو بقولها

والله انتي ما في منك وسبحان اللي خلثك والله على حلاوتك وثطافتك يمكن أنتي فتحتي نفسو عالنسوان

دخيل ثلبك ياأم سعدو شو مسخنة ودماتك خفاف أي والله ام عفيف معها حئ

تقولها أم الخير وهي غارقة بالضحك

شو صار بالقهوة يازكية...

يلا يلا ليكها تكة وبجيبها

زكية قادمة تحمل صينية القهوة بينما أمها تنادي عبد الغني ليخبر فخرية كي تقوم بتجهيز السفرطاس لأبيها وأخيها فلقد أذن الظهر وهذا موعد الأجير بالقدوم لأخذه

عبد الغني قادماً يحمل طبقاً من المشمش قائلاً لأمه

يامو هدول المشمشات بعتتهن جارتنا عيشة بالنهر من طائة المطبخ سناولتن (تناولتهم) أنا وفخرية وبتئللك تاكلوهن بالهنا وعئبال ماتفرحي فيني

تتناول من يده الطبق وهي تقول له ضاحكة

الله يسمع منها ويفرحني فيك، ونسيت في غمرة سعادتها بكلامه أن تقول له

عيب يامو تئول عيشة حاف، لازم تئلها خالتي

زكية لم تنس القصة التي وعدت بها أم عفيف حسنية والتي قطعتها أم سعدو بمجيئها لذلك طلبت سماعها الآن وبما أن أم عفيف تحب زكية فلم ترفض لها هذا الطلب ولكن في يوم آخر لتتوإلى أخرى وحكايات جميلة وأخرى بطعم اللوز المر

إنها دمشق الشام.. دمشق التي يعرش على بيوتها الياسمين الذي يعطر رائحته حكايا الحارات.. إنها عتاب الأحبة دون حقد.. والشرسة كلبوة حين يقترب أحد من صغارها.. إنها المآذن والكنائس والكنس.. إنها بداية الخليقة ففيها المحشر والمنشر.. إنها اللغة وفيها المبتدأ والخبر.. وفي بيوتها الفلة والقرطاسيا وقطة البيت السمينة المدللة..

من منا يذكر دمشق دون أن تتفتح في عينيه ألف فلة، وألف زهرة وألف سبيل.. من منا يحكي عن دمشق دون أن يعرش داخل شرايينه داليات العنب وعرائش الياسمين.. من منا لم تُذكر دمشق أمامه ولم يصنع داخل ذاكرته إطاراً من صور الغوطة، ويوسف العظمة وحسن الخراط وابراهيم هنانو.. من منا لم يهرب من ذكرياته دون أن يختبئ في حاراتها المتعرجة الضيقة، المحروسة بالصلوات والبخور وشموع النذور.. من منا لم يبكِ يوماً داخل الأموي متضرعاً دون أن ينسى المرور بحنانيا والكنيسة المريمية وحارة اليهود.. من منا لم تجره أمه

إلى البزورية وتشتري له الملبس والسكاكر، ولم تنخر أنفه روائح التوابل والبهارات والبخور.. من منا لايبتسم حينما يسمع قصص الجارات خلف الأبواب.. من منا لايخشع حين الدخول لزيارة قبور الأولياء.. من منا لايرتعد حين يدخل مغارة الدم في قاسيون ذلك المكان الذي شهد أول جريمة في التاريخ وبقي الجبل فاغراً فاه حتى هذه اللحظة.. من منا لم يتطهر من ذنوبه في بردى، دون أن تمر بمخيلته الصخرة في دمر والتي نحت عليها عاشق كلمة (اذكريني). من منا لم يُحكى له عن القهاوي ورائحة النراجيل، والقبضايات من الرجال وقصص أبوزيد الهلالي.. نحن لم نكن عاقين يا دمشق، فما زلنا نحدث أولادنا عنك ومازلنا ونحن في الغربة نزرع في عقولهم قصر العظم.. وقبة السيار ودير صيدنايا والشيروبيم والشيخ محي الدين، وسيدنا السروجي في الشاغور ونحنوا ونشفق معهم على الدراويش، وندور مع الصوفيين وننشد..

طرقتُ بابَ الرجا والناسُ قد رقدوا

وبتُّ أشكو إلى مولايَ ما أَجِدُ

وقلتُ يا أَمَلي في كُّلِ نائِبَةٍ

وَمَنْ عليهِ لِكَشْفِ الضُّرِ أَعتَمِدُ

أشكو إليكَ هموماً أنتَ تعلمُها

مالي على حَمْلِها صَبرٌ ولا جَلَدُ

وقَدْ مَدَدْتُ يدي بالذُّلِّ مبتهلاً

إليكَ يا خيرَ مَنْ مُدَتْ إليهِ يدُ

فلا تَرُدَّنها ياربِّ خائبةً

فَبَحْرُ جودكَ يروي كلَّ مَنْ يَرِدُ..

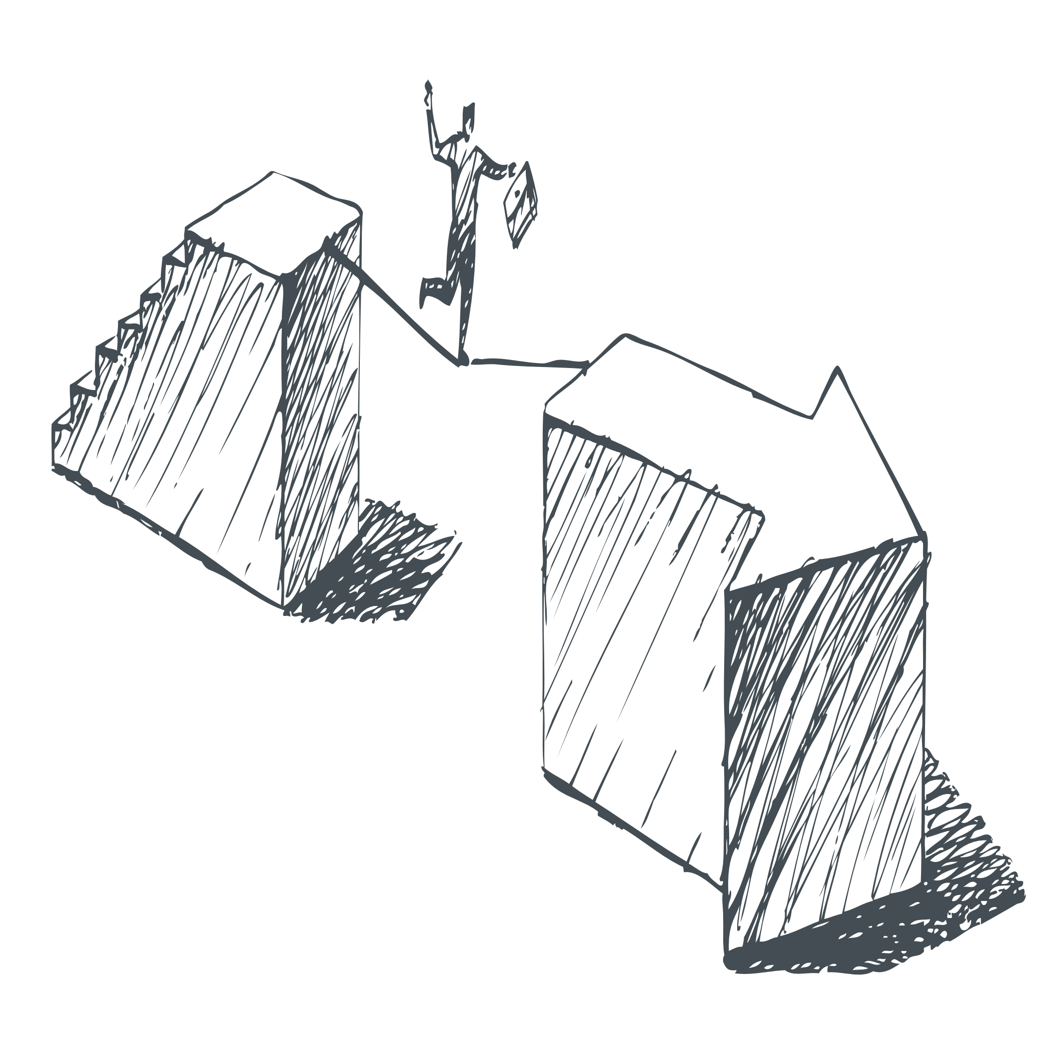
إلى الجوعية مغارة الجوع نسير معهم، هذه المغارة التي مات فيها أربعون رجلاً لم يكن معهم إلا رغيف خبز واحد، وكان كل رجل فيهم يؤثر رفيقه به على نفسه إلى أن ماتوا جميعاً

لا تتهمينا بالتقصير يا دمشق فالحليب الذي رضعناه منك كان مؤصلاً بالحب والإيثار، والنخوة والبطولات والذاكرة التي لاتنسى أفضالك وصبرك علينا.. مازلنا في الغربة نُطعم أولادنا عرائس الزيت والزعتر والمربى الممروت، ونناولهم عصير الرمان، والخشاف، والتوتية، والمهلبية والبغاجا، وكول وشكور.. مازلنا في الغربة نقَّمط المولود أربعين يوماً بعد أن ندهن جسمه الغض بزيت الزيتون، والغرباء يسخرون منا ونحن نسخر من حياتهم التي تعمل بكبسة زر وتنتهي بكبسة زر.. نرفض تسمية الأسواق إلا باسم أسواقك.. والكنائس إلا باسم كنائسك.. والمساجد كلها الأموي.. والكنس كلها جوبر.. مازلنا في الغربة نفرش سفرة رمضان وحين يعلن الإفطار، يصدح المنبه بصوت مآذنك... لا تغضبي مني لأني مضيت عنك.. فهذا لم يكن قراري.. هم من خيروني بين أن أبقى أو أبقى وتموتين معي... أو أن أرحل، وأنت معي.. واخترت أن أمضي ورحلت وكنتِ معي، في بطاقات السفر.. وفي تشردي.. وعلى صفحات كتبي.. وداخل أحلامي وفي صحوي.. وعند سقطاتي ونجاحاتي. حملتك معي كما يحمل الغريب أغلى أشياءه وأقدسها.. وأحنى ظهري همك ياقاسيون وأنا مازلت في الثلاثينيات.

وكنت في صلواتي ودعواتي، أستغفرك لذنب الرحيل الذي اختاروه لي وشرَّدك معي.... كيف بعد كل هذا ولا أعلّم أولادي أن يقولوا بخشوع عليك الصلاة والسلام، حين يذكر اسمك..

قلمت الغربة أظافري يا دمشق.. وبات نهر الوجع كبكاء بردى عند المنحدرات موجعاً ومؤلماً، كفطام صبي لم يبلغ العامين بعد.. فلا الغربة أنستني بحرة أرض الديار ولا الكريب الفرنسي عوضني عن تماري الكعك في حاراتك..

النداء الأخير



النداء الأخير

تعلن شركة الطيران السورية رحلة رقم ٢٦١ عن فتح البوابات لرحلتها المتوجهة لمطار لوس انجلوس، عن طريق الدوحة، يرجى من الركاب التوجه إلى البوابة رقم اثنان.

كان هذا آخر ما سمعته قبل أن أودع دمشق للمرة الأخيرة.. ولم أكن بحاجة لسماع المزيد بعد أن جلست بمقعدي في الطائرة وأغمضت عيني عائداً لشوارع دمشق محاطاً بسياج ذكرى، لا أعرف كيف هبطت علي وكيف أحاطتني بحزن عميق لا أدري ماهيته بالضبط.. حزن مؤلف من مجموعة حلقات مرتبطة ببعضها البعض، كلما حاولت التخلص من واحدة فاجأتني الأخرى بقساوتها وعنادها.. أتركها ليس بسبب عجزي عن فكها.. بل لشعوري أحياناً بأني سعيد بهذا الحزن، رغم مرارته.

لم يكن لدي هدف محدد أذهب إليه.. يومها كنت هارباً من كل شيء كما هي عادتي، فلطالما عجزت عن التواصل مع الآخرين وعجزت عن مد الجسور بيني وبينهم .. فكرت يومها ودمشق حضرت أمتعتها الصوفية فالخريف على الأبواب.. هل أنا الذي يضخم الأحداث.. أم أن حساسيتي المفرطة منعتني حتى من طرح الأسئلة، التي من شأنها أن تقرّب بيني وبين الآخرين.. دوماً كنت ألقي اللوم على نفسي في أي خطأ يحصل لي مع أي شخص من عائلتي أو أصدقائي أو حتى بمكان عملي وأداويه بصمت بعد اعتذار لطيف.. لا أذكر يوماً أني قمت بموقع الهجوم ولا حتى الدفاع.. كنت حيادياً أنظر وأراقب وأتعلم بصمت.. صمت تتلاطم أمواجه بداخلي يحطم في قاعي كل مايمكنه أن يكون شاطئ أمان أو حضن أم (قالوا عنه يوماً) بأنه دافئ.. كنت أتلقى استشعارات هذا الدفء بما يشبه التحكم عن بعد بجهاز إرسال

يرسـل ذبذبـات أتلقفهـا كجائـع ثـم لا تلبـث أن تـزول حيـن تسـيطر عليهـا مزاجيتها التي حولتني لرجـل يبحـث وينقـب عـن سر تلك الإشارات وأين تكمـن وأرصـد كهاربهـا رامياً نفسـي فـي أحضانهـا.

جامعات بريطانيا التي تخرجت منها أمي، وتسلمها لمركز معاونة وزير التربيـة لـم تشـفع لـي عنـد أصدقائـي فـي الصـف مـن التقـرب منـي بـل ازدادوا نفـوراً، منـي حيـن جعلـن منـي معلمـات الصـف الطفـل المدلـل دون أن يشـعرن بأذيتهـن لـي عنـد تمييـزي وتفضيلـي عـن بقيـة الطـلاب طمعاً بإرضائهـا، وظناً منهـن أنـي أنقل لوالدتـي تقرير الاهتمـام اليومـي بـي دون أن يعلمـن بأنـي ازددت انطوائيـةً وانـزواءً كلمـا حاولـت التقـرب مـن أصدقائـي للعـب معهـم ورفضهـم لـي إلا حيـن أقـدم لهـم الألعـاب والهدايا كرشوة يتقاسمونها بينهم لأحصل بها على ساعات من اللعب ينتهـي مفعولهـا بتوقيـت مللهـم منهـا.. كنـت أجرهـم للعـب لأحصـل علـى اهتمامهـم ومحبتهـم حتـى لـو قامـوا بتكسير الألعاب.. كنـت صغيراً وعاجزاً عن التعبير فأنا طفل والأطفال عادة يشرحون بطريقة التعبير لا الكلام.. وعندما كبرت قليلاً صرت أبحث عمن يحدثني لأن زمن الدمى قـد ولّـى.. وبعـد الانصـراف مـن المدرسـة وانتهـاء دور محبـة المعلمـات واهتمامهـن.. كانـت تتلقفنـي فـي البيـت يـدا مربيتـي التـي كبـرت فـي حضنهـا.. امرأة رائعة حملت داخلها كل صفات الأمومة الصادقة.. كبرت وأنـا أعـي حقيقـة أن لـي أمّـان لكنهـا حقيقـة أعيتنـي كلمـا حاولـت البحـث عن أمي الحقيقية وجدتني في أحضان الأخرى.. الأخرى التي لم أضطر لرشوتها يوماً فهي الوحيدة التي كانت تصغي إلى كل ماأقول دون أن تتذمر.. وتضحك لنهفاتي متلهفة لسماع المزيد دون ملل.. وأنا مازلت بعد موتها أردد كلماتها كصلاة عندما همست لـي وهـي علـى فـراش المـوت قائلـة.

اجعـل مـن أحلامـك مـادة أوليـة كبدايـة لصنـع كل ماهـو جديـد فـي إبـداع طموحاتـك.

نسجت من خيوط دفء صوتها قبعة أرتديها كلما شعرت بصقيع الفشل يتسرب لداخلي..

ترك موتها في نفسي حزناً عميقاً وفجوة هائلة من الفراغ الذي افتقدته بعد رحيلها الذي شكل أول صدمة تلقيتها في حياتي.

وتتالت الصدمات ليتبعها قرار أمي وأبي بالسفر للخليج بعدما قدما استقالتهما.. هذا القرار اتخذاه بعيداً عن مشاركتي به مع أنني كنت في الثانوية أي في سن تؤهلني للمشاركة بكل شيء لكن علمت بأن هذه النتيجة كانت صادرة عن ضغوط فُرضت عليهما.. فوظيفة أبي وحساسيتها كقاض في محكمة أمن الدولة يتنافى تماماً مع مايجب أن يقوم به بعيداً عن ما أسموه ضمير.

جاءت ليلة السفر وكانت عبارة عن دموع قليلة ذرفتها أمي لا أدري لماذا.. ولمن.. ولم يكن يهمني أن أعرف.. ليلة مختصرة مليئة بالنصح والتحذيرات والترهيب .

- فليكن حب الله في قلبك دائماً وواظب على الصلاة فهي تمنعك عن الفحشاء والمنكر.

- سأفعل

- لا تقرب مما حرمه الله ولا تنسى أن الله يراقب تصرفاتك.. فهو ينظر إليك وسيعاقبك إن أخطأت

- سأفعل

- لا تقترب من النساء فهن بلاء وقادرات على إفراغ جيوبك وصحتك ورميك بعد أن تعلن إفلاسك ومرض ربما لن تبرأ منه

- سأفعل

- لا تتردد أبداً إن احتجت شيئاً فنحن معك دائماً ورحيلنا سيكون لتأمين مستقبل أفضل لك

- سأفعل

- لا تقترب من رفاق السوء.. إياك وحفلات الموسيقى

- سأفعل

- لا تشرب الكحول وابتعد عن تدخين السجائر وعن المدخنين

- سأفعل

- لا تتأخر خارج البيت

سأفعل..سأفعل..سأفعل

أول قرار اتخذته حين نجحت بالثانوية بتفوق، هو أن لا أحقق حلم أبي بأن أصبح طبيباً وهذا ماقلته له حين اتصل بي يهنئني على نجاحي مبتدئاً كلامه معي..

كيف حال طبيبنا؟

لن أدخل كلية الطب يأبي لقد اخترت تحقيق حلمي، بدخول كلية الفنون الجميلة.. صمتُ أبي فسح المجال لصوت أمي من بعيد فرحاً بما اخترت فما يهمها هو إزاحة أي عبء عن كاهلها مهما كان نوعه.. صمتي أنا وأبي شرح ما لا تستطيع كلماتنا قوله.. أدرك أبي أن لا فائدة من مناقشتي فغيابه هو وأمي جعله عاجزاً عن إصدار الأوامر وبيننا مرسومة كل تلك الحدود الجغرافية والنفسية، التي جعلتنا نبتعد أكثر عن أية صيغة تفاهم أو حتى اتفاق.. بقينا صامتين وغالباً مايكون الصمت عن الكلام... هو الكلام.. لكنه قال قبل إغلاق سماعة الهاتف.

كنت أتمنى أن أكون أباً لطبيب لا أباً لرجل يخربش على الورق..

رغم فرح الجميع بتفوقي إلا أن فرحتي بدت باهتة كقوس قزح لُوّن بالأبيض والأسود.. كانت بمثابة الإعلان عن الإفراج عني بعد أن قضيت اثني عشر عاماً وأنا أجتر الكتب كخروف يمضغ العشب بغية

تسمينه ومن ثم وضعه على مذبح الحياة في بلد لاتعير اهتماماً إلا لمن يحمل شهادة واسطة تقدر مدى أهميتها من خلال الجهة التي وقّعت عليها.

داخل أبي كانت تعيش شخصيتان تتصارعان دوماً.. تتنافسان بالقوة ولا تستطيعان التوقف رغم كل ماكان يبذله من جهد محاولاً تبرئة نفسه مما يحصل بداخله.. الشخصية الأولى هي شخصية القاضي الشريف العادل الذي يحاول دائماً التملص من قوى نافذة تفرض عليه مالا يؤمن به ويرفضه وهذا بمثابة إعدام لضميره إن حاول يوماً الموافقة أو التوقيع عليه ومسايرة أصحابه.. والشخصية الأخرى الحاملة كل حنان العالم اتجاهي.. حناناً لم تحمله أمي فأمي لم تكن تختلف عن أبي بجبروته.. لكن جبروتها كان حقيقياً، ممنوع على أحد الاقتراب من معبدها أو المساس به فحبها للظهور واهتمام الآخرين وإحاطتهم لها بكلمات الإطراء والمجاملة كان قمة سعادتها.. أما أبي فجبروته مجرد ديكور خارجي يخفي خلفه حناناً كبيراً متوهماً بأن منح الكثير من العطف والحنان سيجعلان مني صبياً مستهتراً وربما أنتهي في السجون مثل أكثر الحالات التي يعايشها في المحاكم.. هذه الأسباب جعلتني لاأكرهه ولا أحقد عليه.. وفي ذات الوقت كنت دوماً أعاقبه بداخلي بصمت لأنه لم يقرأني جيداً مثلما كان يقرأ قضاياه.. ولم ينصفني مثلما كان ينصف متهميه.. كثيراً ماجاهدت للتقرب منه وكثيراً ماتلهفت لسرقة عطف دون أن أشعره بحاجتي إليه، وبيني وبين نفسي أشعر بالحزن حين لم يكن يعانقني لكنني كنت أغفر له كل شيء فأنا عرفت أبي جيداً في لحظات مرضي.. عرفته حين كان يناولني الدواء مخفياً عني دموعه ظناً منه أني نائم.

تخرجت من الجامعة وكان يتوجب على إدارة الجامعة، منحي تقدير لما كنت أقدمه.. هكذا قال لي أستاذي بحزن لأن من حصل على العلامات لايستحق لقب فنان أو رسام بل لايصلح حتى ليكون مدرساً

فـي روضـة أطفـال.. وعلمـت فيمـا بعـد بـأن مـن حصـل علـى شـهادة التقدير هـو من يترأس المسابقات التـي ترسلها الدولة لمعارض الرسـم فـي الخـارج.. وبـأن هنـاك أكثـر مـن دكتـور فـي الجامعـة يقومـون برسـم لوحـات موقعـة باسـمه.. أمـا أنـا فوجـدت بعـد جهـد كبيـر وظيفـة أستاذاً للرسـم فـي إحـدى المـدارس الابتدائيـة بالضواحـي.

أحزنني حين كنت لا أرى في وجوه طلابي الصغار أثراً للعافية ولا حتى للبراءة.. حتـى صراخهم وهم يلعبون صراخ نجدة من أشياء لا يعلمونها لكنهـم يشـعرون بهـا.. ربمـا السـبب فـي وجـوه أهاليهـم المتشـحة بحـزن كالـح أسـود.. أهاليهـم الذيـن يأكلـون اللـب ويضحكـون، لمجـرد الضحـك وكأن الضحـك نوع من التحدي لقتل الخـوف المزروع داخلهـم أو لإقنـاع أنفسـهم بأنهـم مازالـوا بخيـر، متحديـن كل أشـكال المـوت مـن الفقـر والمـوت مـن الحاجـة، والمـوت مـن ألـم حـروب خفيـة لا يتجـرأون علـى البـوح بهـا.. لكنـك لـو حاولـت أن تجـرب مـرة الدخـول لقاعهـم لسـمعت عـواء ابـن آوى جريـح يصـرخ ألمـاً مـكان الضحـك

كثيـرون منـا عجـزوا عـن تحقيـق أهدافهـم.. فتحقيـق الأهـداف يحتـاج لمثابـرة وعمـل واجتهـاد شـخصي.. لكـن فـي بلـدي يتحتـم عليـك تحقيـق الهـدف مـن خـلال المحسـوبيات، وهـذه أيضـاً لـن تمنحـك التفويـض بالارتقـاء بنفسـك وطموحاتـك.. اذ ستكتشـف فيمـا بعـد بأنهـا لـم تكـن تصـب إلا فـي مصلحـة الآخريـن.. وبأن هـذا ليـس زمـن الطموحـات والأحـلام بـل زمـن النفـي إلـى داخلـك وزمـن الإحباطـات ..وأن تكـون ثعلبـاً مراوغـاً طيلـة الوقـت فهـو أمرمتعـب للغايـة.. خاصـة لرجـل مثلـي تسـيطر عليـه الفضيلـة حتـى شـرايينه.

كنـت دائمـاً أنتمـي لأصحـاب الضميـر الحـي.. ومثـل هـؤلاء لايكفـون عـن البحـث والمراقبـة لإيجـاد مايمكـن إصلاحـه.. هـل هـذا هـو السـبب الـذي جعـل الكثيريـن يبتعـدون عنـي حتـى أقربائـي الذيـن آلمنـي أن لا أجدهـم قريبيـن منـي وبعيديـن جـداً حتـى بالسـؤال عنـي حتـى هاتفيـاً.. تلـك الوحـدة

اضطرتني لزيارة أبي وأمي للمرة الأولى بعد ست سنوات واعتذرت عن المجيء في العام الذي تلا تلك الزيارة إذ عجزت عن الانسجام في بلاد حارة خالية من الروح يحمل أصحابها وجوهاً عابسة متوترة من لاشيئ.. وجوهاً خالية من أية تعابير.. لا مشاعر غضب أو رضى أو حزن أو فرح.. وجوهاً لاتصلح إلا لرسم شعارات جادة أو تصاميم لبوسترات تتحدث عن ظواهر غامضة حيرت العلماء.

كادت الوحدة تقتلني.. وتبخر من حولي الأقرباء والأصدقاء.. ولم تكن غير الجامعة قادرة على قتل الروتين إضافة لقيامي بفنون مبهرة لأساتذتي وتحدياً للكآبة المحيطة بي.. ولولا وجود ناتاشا لكان السأم قد نفذ جريمته بي.

تعرفت على ناتاشا لأول مرة عندما دعاني صديقي إلى الملهى الليلي وكانت بصحبتهم هو وصديقته.. رغم أني ترددت كثيراً بالذهاب لمكان أرفض التواجد فيه واحتقاري لصنف النساء اللاتي يمنحن أنفسهن مقابل المال.. إلا أن الفكرة راقت لي طالما أنها ستكون بمثابة مخدر مؤقتاً.. لكنها تحولت مع الوقت إلى عادة أصبح من الصعب علي تركها بسهولة.

عندما دخلت للمرة الأولى شعرت بالأرض تهتز وكأنها دماغ ارتج للتو وبقي مستمراً دون توقف.

هيا لنرقص... قالتها ناتاشا بلغة عربية متكسرة وهي تجرني للرقص.

سعدت وأنا أحدثها بصوت مرتفع.. والحقيقة هي أني معجب بصراخي لا بنوع الحديث ففي مكان كهذا لا مجال لفتح مواضيع من أي نوع باستثناء ماتريد طلبه من النادل فالحديث هنا مؤجل ويمكنك الاكتفاء بالإشارات.. صوتي كان بمثابة صراخ ولم تكن الغاية منه الحديث لكني بحاجة لإسكات أصواتي الداخلية به.. حتى هي مكتفية بالابتسام لكل ماأقوله مع أني متأكد من أنها لم تفهم حرفاً واحداً مما قلت.

كان رقصي نوعاً من الاستنكار وكأنها نفسي تتحدى نفسي.. أنا لا

أعلم شيئاً عن هذا النوع من الرقص ولا أذكر بأني قد رقصت يوماً إلا مانسميه الدبكة وكنت أحبها أما ماعدا ذلك فكان بالنسبة لي جنون ونوع من أنواع الصرع.. لكن الليلة اختلف كل ذلك بعدما شعرت بأني حيوان شرس يركض في الغابات ولا يتعب.

أهز رأسي وعيناي مغمضتان ويداي تسبحان بالهواء وتضربان كأنهما ممسكتان بآلة إفريقية تدق بهما طبول الحرب إيذاناً لمعركة ما.. أصرخ وأصرخ وأصرخ وتلك الطبول مازالت تقرع.. تنادي لكل مايسكن بداخلي وتستحضره.. وكل مايسكنني يلبي نداءها معلناً النفير العام على كل شيئ.. لا اريد التوقف رغم شعوري بالتعب ورغم العرق الذي يغسلني.. لا اريد أن اتوقف رغم الدوار.. هل جربت الدوران في المكان حتى الإغماء؟ إنه شعورمخيف ممزوج بلذة لها طعم خاص.. شعور يحدد لك بأنك قد تنصلت من كل ماأسموه عالمك الخارجي.. شعور قادر أن يوصلك إلى نقطة هدف ترتقي بمرتبتها إلى صفاء روحك وحدها منصتاً لموسيقاك الداخلية مبتعداً عن كل مايمكنه إيلامك وعن كل مازرعوه بداخلك من شكوك جعلتك غير قادرعلى أن تثق بذاتك.. شعور يجعلك تتخلص من كل الرواسب التي تركتها أزمات نفسية مررت بها ووجدت صعوبة في حلها.

تنبهت على يدها التي كانت تهزني بقوة.. وتشدني من يدي للخروج من حلبة الرقص قائلة..

ماذا دهاك؟ تراك أثقلت في الشرب هيا لنخرج من هنا.. لم يخطر ببالي أن أسألها ماذا حصل.. لم يكن يهمني أن أعرف.. لكن ماعرفته هو أنني كنت في تلك اللحظات كمن ثار على الأشياء.. بالصدق ذاته.. بالانفعال نفسه.. بتحد غير مسبوق لهدم كل السدود التي يمكنها أن تحول بيني وبين ما أريد.. لكن صورة المظلة التي كنت أحمي بها الآخرين لم تفارقني في رحلة الغيبوبة المؤقتة.. فغالباً ماكنت أدفع ثمن أخطاء الآخرين ولم أكن أملك الشجاعة التي تخولني لأسألهم.. أهو ضعف مني.. أم أنهم كانوا أقوى بكثير مما توقعت

ناتاشا تخلع ثيابها بعد أن قبضت ثمن قضاء الليلة دون أن تخفي دهشتها بالديكورات الغرائبية التي جمعت بين القديم والحديث بطراز شرقي متقن بفنه.. اقتربت مني حاولت لمسها لكني عجزت.. دفعتني بعيداً عنها مئات الجثث لنطف رجال زرعوها داخل رحمها، وربما توزعت آلاف منها على هذا الجسد البض.. أم تراني أحتال على نفسي لأبقى محافظاً على عذرية الوصايا التي وعدت بها أمي وأبي؟ أم أنه جوعي للكلام وإنصاتي لرعشات الحروف العالقة في حنجرتي، أكثر من الإنصات لرعشات جسدي؟

ناتاشا ممددة على السرير وأنا جالس قبالتها على الأريكة وكأننا مريضة وطبيب داخل عيادة نفسية.. تتنقل بنظراتها إلى اللوحات المعلقة على الجدران.. وعيناي تتنقلان للوحات عجزت عن رسمها لقناعتي بأن كل مانرسمه أو نكتبه أو حتى نمارسه في حياتنا.. سيبقى لوحة ناقصة مهما بذلنا من جهد إبداعي لخلقها.. كفراشة طارت وطارت وطارت لكنها وجدت نفسها داخل شباك عنكبوت ظل وقتاً يحيك خيوطه بحنكة لافتراسها بينما كانت تظن أنها تهرب من النار كي لا تموت لكنها لم تعلم بأن للموت وجوهاً عدة يفاجئنا بها على حين غرة.

لم تكن لدي الرغبة بممارسة أية متعة من أي نوع بقدر حاجتي بالتحدث للمرة الأخيرة قبل الرحيل مترجماً مشاعري كلاماً بعيداً عن الرسم.. ناعياً بصوت كسيح كل ما مررت به غارقاً بحزني كأني رجل علق بعنق زجاجة.. سأرحل مجرد جثة مخلفاً ورائي ذاكرتي وطفولتي وحاراتي ونبضي ونزفي وقهري جثة حاملة جواز سفر.

نعوت نفسي بأقرباء خذلتني بهم وخدعتني قرابة دم فاسد تخثر نتيجة قطع شرايين العلاقات بيننا، والتي بدأوها دون معرفة أسباب منطقية لها.. لطالما كنت السباق دوماً لمساعدتهم ومشاركتهم أتراحهم وأفراحهم.. ولا أذكر بأني يوماً حاولت الاعتذار حين كان أحدهم

يطلب مساعدة من أي نوع كانت.. دوماً راودني قلق سؤال عجزت عن الإجابة عنه.. لماذا لا يترددون بإيذائي كلما سنحت الفرصة لهم بذلك.. لماذا لا يكلفون أنفسهم بالسؤال عني حين أغيب.. وجدتني أوجه هذا السؤال إلى ناتاشا التي جاوبتني بلامبالاة..

ربما أنت المخطئ ربما قولك الحقيقة هوماينفر أشخاصاً من حولك لم يعتادوا على ذلك ولا يجرؤون على رؤية وجوههم الحقيقية، وربما أنت من تنزع ذلك القناع الذي يشعرهم بأنهم كانوا في حال أفضل.. هناك أشخاص نتوهمهم حقيقة ونحبهم ونثق بهم لكنهم لايرونا كذلك.. إنه قدرك أن تحبهم.. وقدرك أيضاً أن تكون خناجرهم وسمومهم من نصيبك أنت.. صمتت برهة ثم أكملت باللامبالاة نفسها..

لماذا تقسو على نفسك وتضيع وقتك بالتفكير ممن خدعوك أو من الذين حاولوا إيذاءك؟ هذا يجعل الفرح داخلك ينضب وآمالك تتقلص وربما مع مرور الوقت ستصبح عاجزاً عن عمل أي شيئ سوى البكاء على أطلال ذكريات، وماض أصبح بالفعل ماض.. استمتع حتى بأخطائك.. فهناك أخطاء تكون بمثابة مغامرة لطيفة.. مغامرة قد تكون نتيجتها مفرحة.. لكنها ستهرب بالتأكيد منك حين تكون عابساً ومتوتراً نتيجة تزاحم الأوراق التي تعلو طاولتك. حين ننجز كل شيئ فهذا يعني أننا أتممنا مهماتنا وانتهى الأمر عند هذا الحد.. لذلك نبدأ بمراقبة أخطاء الآخرين وما يفعلونه.. أغلبنا يرفض الأخطاء ولكنه يمارسها.. حتى لو لم تكن تؤذي غيرنا.. لكن توقفها يبدأ حين نعترف بها أمام مرآة صدقنا دونما مواربة، وهنا سيصبح بمقدورنا تلافي أي خطأ فيما بعد.

يالسخرية القدر الذي جعلني أشمئز بالاقتراب من عاهرة رافضاً معها استباحة جسدي ورجولتي، مستبيحاً في الوقت ذاته تاريخ حزني مفرغاً شهواتي لمعرفة أجوبة عجزت عن إيجاد تفسيرات لها فيما مضى.. عاهرة تملك قدرة عجائبية على نبش قبور الماضي الساكنة قلبي..

تمنحنـي الفرصـة لأسترسـل بالـكلام كسـاقية تعترضهـا أحجـار غصـات وبدايـات بـكاء وتبقـى مسـتمرة بجريانهـا دون توقـف.. لكـن حجـر العثـرة الوحيـد الـذي أفسـد إمكانيـة إقامـة علاقـة معهـا، هـي أننـي لـم أحبهـا فشـعوري نحوهـا مجـرد حالـة مـن التعويـض التـي افتقدتهـا مـن أمـي واكتفيـت لفترة طويلة بالكلام الذي ظل محبوساً محاصراً بجيوش من الخـوف الممـزوج بالخجـل الـذي زرعتـه أمـي، داخلـي وقيدتنـي بـه بجنازير اجتماعيـة وأسـرية آذتنـي بصليلهـا.. لذلـك فقـد كانـت ناتاشـا بالنسـبة لـي أجوبـة لأسـئلة محاصـرة ألجـأ إليهـا حيـن أعجـز عـن إيجادهـا.. وهـي البشاشـة التـي عجـزت أمـي عـن رسـمها فـي حياتـي، وهـي الاهتمـام الـذي افتقدتـه بوجودهـا..

هكـذا نحـن أغلـب البشـر نبحـث عـن أشـخاص يشـبهوننا بأفكارهـم، ثـم لا نلبـث أن نرفضهـم خوفـاً علـى أنفسـنا مـن هزيمتنـا أمامهـم.. نطالـب بتغييـر مـالا يعجبنـا، ومـا لا نـراه مناسـباً ضمـن نطـاق رؤيتنـا نحـن، وليـس مـن بـاب التغييـر الـذي لـم نكلـف أنفسـنا لدراسـته بعمـق ومـا سـتؤول إليـه النتائـج.. إنهـا (الأنـا) التـي قضـت علـى كل مـاكان يمكـن أن يكـون جميلاً وممتعاً، ومستقبلياً.. وحين نحـاول أن نشـكل مجموعـة مـن (نحـن) ترانـا نخترع كل أنواع الطـاولات.. منهـا المستديرة ومنهـا المربعـة ومنهـا المسـتطيلة ومنهـا البيضويـة.. لكنهـا فـي الحقيقـة هـي طاولـة سداسـية الشـكل وكلامنـا مجـرد ثرثـرة.. فالسـيد هنـا هـو أيـاد خفيـة تحـرك الأحجـار ضمـن منظومـة قـادرة علـى إسـقاطنا جميعـاً، سـاخرة منـا لأنهـا تعلـم بـأن اجتماعنـا فـي مـكان واحـد يعنـي أننـا أشـخاص متمرسـون بالمنافسـة والتحـدي.. والتحـدي يعنـي إمـا الربـح أو الخسـارة.. أمـا القـوي بـذكاء فهـو مـن رفـض الجلـوس أصـلاً، لأنـه يعلـم بـأن تواجـده غبـاء مسـتتر بالفشـل الـذي سـيعانيه نتيجـة الضعـف والفـراغ والحلـم بالقـوة.. هـو يعلـم سـلفاً أن أيـة طاولـة سـيجتمع عليهـا أكثـر مـن شـخص تعنـي مـوت مـن يحـاول اكتشـاف تلـك الأيـدي الخفيـة.

حين كنت صغيراً كنت أسمع أبي يقول...عندما نعجز عن إيجاد حل لمشكلة عالقة.. كل ماعلينا فعله هو أن نتأمل.. فالتأمل يخفف من توترنا ويمنحنا قليلاً من الهدوء الذي يصعب الحصول عليه في زحمة ما نفكر به ولن يكون سهلاً علينا، إيجاد قرارات صائبة في ظل خيوط تشربكت نتيجة للعصبية وأحياناً نتيجة للحزن المسيطر علينا، وكثيراً من الأحيان لحياة لم نجد بها مانصبو إليه.. فلنحاول أخذ نفس عميق وإغماض أعيننا لنتأمل.

هذا الكلام رائع من الناحية النظرية يا أبي.. أذكر جيداً عندما كانت تضيق بك كنت تخرج للتأمل على أطراف بردى.. وتعود بعدها مفعماً بأوكسجين الحياة والطيبة، حاملاً معك ثمار تفاؤل قطفتها من غوطة لا تحاسبك على ثمن تفاؤلك.. بردى اليوم جيفة نتنة مأوه أسود مقرف ورائحته كريهة، تجعلك لا تستطيع الوقوف أمامه ولو لدقيقة.. وأوكسجين الغوطة تحول لأوكسيد الكربون بالمعامل المحيطة بها.. والهدوء قتله صخب أصوات أبواق السيارات والمشاجرات، والحافلات الحاملة هموم أصحابها بثقل الاسمنت الذي تنقله كل يوم لأبنية جديدة حتى تكاد لا تتسع بالسكن لأكثر من شخصين على أكثر تقدير.. أين التأمل داخل مغاور نفس مسكونة بأشباح الماضي وصعوبة العيش في الحاضر والتخاذل على النفس والضعف الذي زُرع فينا نتيجة عنجهية الآخرين، وصعوبة التأقلم في مجتمع يمحي كل مايمكنك الحلم به، ويبخره قبل أن تفكر حتى في طرح مايصبو إليه تفكيرك.

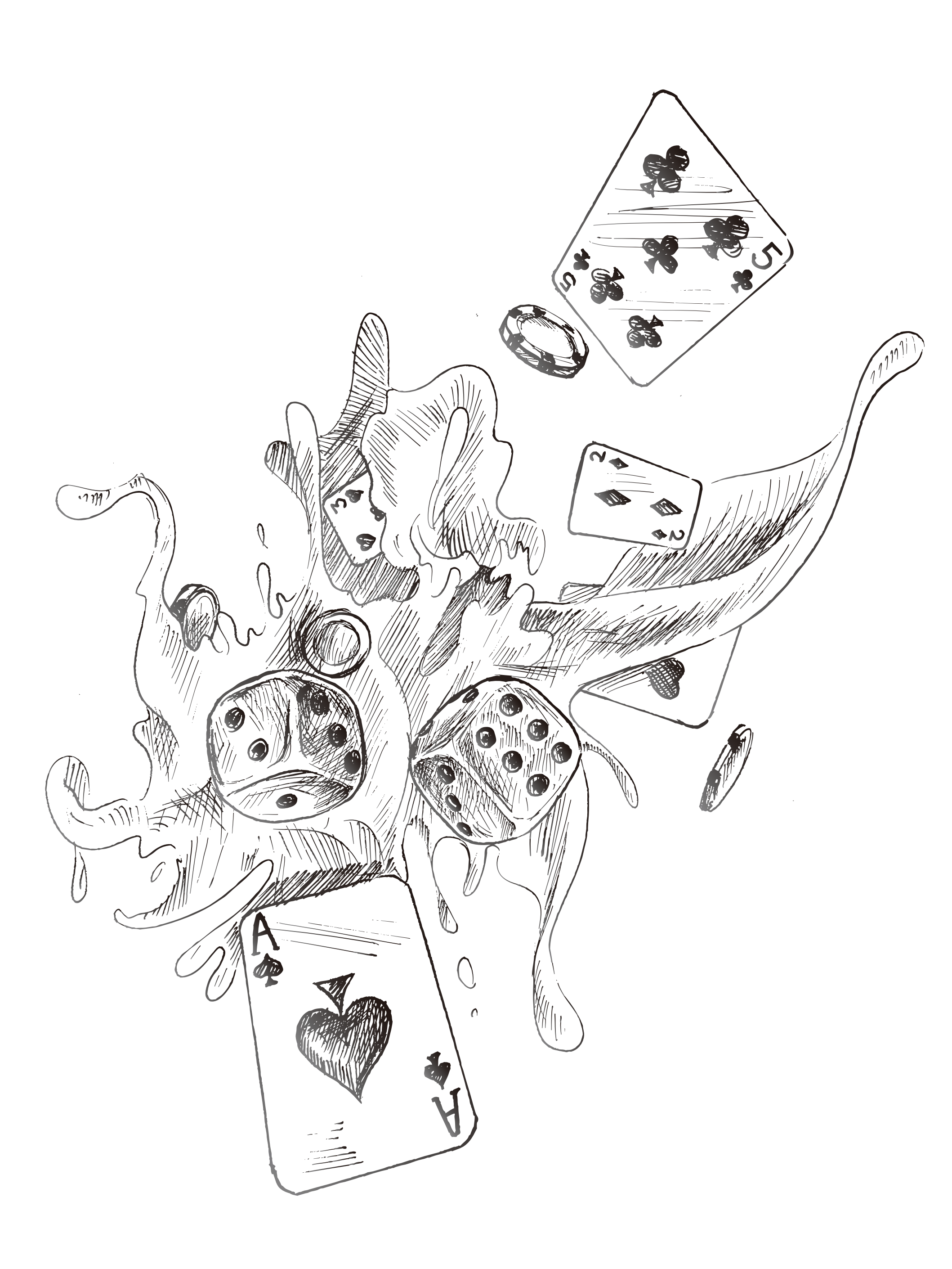
أين بإمكاني إيجاد مكان للوحاتي التي رُفضت في أكثر المعارض لأني رفضت رسم أفكار لم تعجبني لتفاهتها.. كيف سأبتسم وأنا أشاهد صديقي المبدع قد تخلى عن إبداعاته الفكرية واستبدلها (ببسطة) في سوق للخضار بعدما تم طرده بلباقة، فالوظيفة التي كان يطمح إليها انتقلت لأكثرهم كفاءة بالتملق ومسح الجوخ.

الآن أدركت ياأبي بأنك كنت متأملاً عظيماً.. فلقد اخترت فتح الباب والخروج منه بابتسام ولطف.. قبل أن يتم طردك وأنا فعلت الشيء ذاته فمكاني هنا غير لائق ووجودي هنا يعني أن أبقى أنا أنا.. أتحرك

بأمر وأنطق بأمر.. بلا تجديد.. بلا هدف.. مجرد رجل آلي يتحرك بأوامر خارجية وكل مابداخله إشارات مرسومة.. ممنوع الوقوف.. ممنوع المرور.. منعطف خطر.. خفف السرعة.. انتبه .. حاذر الانزلاق..

كان لابد من الهجرة، فالتداعي تلو التداعي تلو التداعي يعني النهاية .. وأنا لا أريد أن أنتهي أنا أبحث عن التجديد.. تجديد طموحاتي وأحلامي وأيامي، وعمري المسكوب في آنية قابلة للكسر بحركة خاطئة.. سئمت من تقلص فمي وعبوسي كلما قرأت لافتة مكتوب عليها ابتسم، من فضلك.. لم يعد الانسجام منسجماً مع طبيعته بل خرج عن انسجامه دونما خوف أو إحساس بالذنب.. إنها دوامة والرابح فيها هو من يخرج منها معافى دون أن يغمى عليه ميتاً.


شكراً لأني قتلتك



شكراً لأني قتلتك

الفوضى تعم الحي الذي كانت تقيم فيه جمانة، بعد أن حضرت الشرطة لموقع الجريمة واعتقلتها.. بناء على هاتف منها سلمت به نفسها.

نساء الحي يراقبن بذهول ماحصل، وجمانة مكبلة بالقيود يجرها شرطيان ويدفعان بها إلى سيارة السجن.. عدد من رجال الشرطة بقوا لحراسة المنزل بانتظار المحقق والطبيب الشرعي لإخراج الجثة.. حالة الثرثرة والتنقيب عن قصص المتهمة هو ما يسيطر على الأجواء.. تكرار النساء نفس القصص مع زيادة أو نقصان كلما انضمت إليهن مجموعة جديدة من النسوة اللاتي أتين من الأحياء المجاورة.. ومحاولة الرجال فك رموز ماحصل متحولين إلى محققين ومفكرين ومحللين منهم المؤيد ومنهم المعارض.. لكن الجميع متفق باستحالة ارتكاب جمانة جريمة.. جمانة المرأة اللطيفة المحبوبة التي كانت تبتعد عن طريق النملة خوفاً من أن تسحقها.. تلك الحنونة التي لا تتوانى عن مساعدة الغريب قبل القريب.. لا يعقل ذلك.. ربما حصل خطأ ما..

هذه كانت شهادة الجميع بدون استثناء عند الضابط المحقق.

يأمر الضابط بإحضار جمانة للتحقيق.. تدخل وتلحق بها مئات إشارات الاستفهام.

تبدأ كلامها بكل هدوء.. ودونما ارتباك أو خوف.

تزوج أبي بعد وفاة أمي بثلاثة شهور ولم أكن قد بلغت بعد الثالثة عشر من عمري.. كنت الكبيرة بين إخوتي ثلاث بنات وولد هو أصغرنا.

والدي كان رجلاً حنوناً وكريماً.. أمورنا المادية جيدة فوالدي يملك ورشة لتصليح السيارات بالإضافة لمحل خرداوات في الحي.. سارت

الأمـور علـى نحـو جيـد تقريبـاً قرابـة الخمسـة أشـهر حتـى بـدأت تظهـر المشـاكل بينـي وبيـن زوجـة أبـي، مشـاكل كانـت تتعلـق بإخوتـي وقسـوة زوجتـه علينـا.. كنـت متفوقـة بالدراسـة ومحبوبـة مـن أسـاتذتي.. وعلـى الرغـم مـن الظـروف القاسـية التـي مـررت بهـا بعـد وفـاة والدتـي غيـر أنـي نجحـت نجاحـاً باهـراً فـي ذلـك العـام وكـدت أطيـر فرحـاً فالعـام القـادم سـأنال الشـهادة الإعداديـة وأكمـل دراسـتي لأتخـرج طبيبـة وأحقـق حلـم والدتـي.. لكـن زوجـة أبـي أجهضـت فرحتـي طالبـة مـن أبـي أن أتـرك المدرسـة بحجـة أنهـا لـم تعـد تقـوى علـى تربيـة ثلاثـة أطفـال.. مـع العلـم أننـي لـم أكـن مقصـرة تجاههـم وكنـت أمـاً وأختـاً وصديقـة علـى الرغـم مـن صغـر سـني لتحمـل تلـك المسـؤوليات..

لـم أشـأ أن أحـزن أبـي رغـم الغصـة التـي آلمتنـي فـي الصميـم لـوداع الدراسـة وهجـر حلـم أمـي.. وازداد شـقائي حيـن فكـرت بيـن مـا أريـد تحقيقـه وبيـن مـا يختـاره لـي آخـرون بينمـا أنـا عاجـزة عـن التمـرد أو الاعتـراض بعدمـا أطفـأت زوجـة أبـي كل شـعاع أمـل عشـت بـه منتظـرة اللحظـة التـي أدخـل بهـا عالـم الطـب.. نكـد زوجـة أبـي تحـول إلـى شـر تسـتعر نـاره كلمـا رفـض أبـي طلبـاً مـا تـراه مناسـباً مـن وجهـة نظـر أحاديـة ممنـوع علـى أحـد مشـاركتها بـه أو الاعتـراض عليـه أو حتـى مناقشـته.

أكثـر مـا عشـت بـه مـن ألـم هـو التناقـض الـذي احتـل مسـاحات مـن شـخصية والـدي بيـن سـعيه لمرضـاة زوجتـه وبيـن عجـزه عـن الدفـاع عنـي أنـا وإخوتـي رغـم علمـه أنهـا تلفـق التهـم لنـا جزافـاً ومـا تماديهـا علينـا إلا بسـبب ضعـف أبـي الـذي لـم يضـع لهـا حـداً جعلهـا تتجـاوز كل الخطـوط الحمـراء دونمـا شـفقة.. لذلـك اخترت طريـق التعامـل بصمـت وتنفيـذ كل مـا تطلبـه رأفـة بإخوتـي ووالـدي أيضـاً.. ورأيـت أنـه مـن الحماقـة التعامـل مـع شـريرة غـاب عقلهـا حيـن احتـل مكانـه شـهوة حـب المـال والسـيطرة..

ثـم بمـاذا يفيـد نصحـك ورقتـك مـع مـن يـزاول مهنـة الخبـث وحياكـة ثيـاب الأذى؟

التحقت بمعهد لتعليم فن التجميل والتزيين النسائي كما أرادت زوجة

أبي.. وبعد عامين تخرجت وكنت الأولى على تلك الدفعة.

استأجر لي والدي صالوناً في أحد الشوارع المشهورة بالمدينة.. وبدأت الأمور تسير على مايرام وبدأت أكسب المال الذي جعلني أقوم بتسجيل إخوتي في مدارس خاصة.. وتحملت بعدها وحدي مصاريفهم بعيداً عن أبي الذي بدأت حياته المادية بالانحدار نتيجة سوء تصرف زوجته وطلباتها التي لا تنتهي.. وما تلاه من تفتيش جيوبه وسرقة كل ما تضع يدها عليه متهمة إياي وإخوتي بفعل ذلك.. ولذنا بالصمت من أجل والدي الذي كانت تمنعنا شفقتنا عليه لضعفه أمامها واستبدادها به.

اتخذت قراري بعدم الزواج لحين اشتداد عود إخوتي ودخولهم الجامعات.. تحديت نفسي بالانتصار عليها كي لا أضعف أمام رجل يمكن له أخذي من صغار كانوا بحاجة للعاطفة والحب كحاجتهم للطعام واللعب.. سعادتي استخرجتها من نجاحاتهم واستمراري هو بفضلهم وأنا أراهم يكبرون أمامي محلقين بأجنحة التفوق عاماً تلو العام.. حرصت كل تلك السنين على عملي كحارسة لهم حين آلمني تحول والدي لغريب ومع ذلك بقيت مكانته في قلوبنا ممزوجة بالحب والشفقة عليه.. وما نجاحاتهم التي حصلوا عليها إلا بمثابة قتل القهروالظلم الذي لحق بنا وثواباً وأجراً لأمي.

تخرج إخوتي من الجامعات.. وشعرت كأني عامل منجم قضى عمره في التنقيب ليتفاجأ أخيراً بكنوز مخبأة كهدية من القدر لصبره.

لقد أديت الأمانة يا أمي.. كفيت ووفيت.. حلمك بي كطبيبة بددته امرأة قاسية استمدت قوتها من رجل ضعيف.. لكني عوضتك بدلاً عنه بطبيبتين وطبيب.. ارقدي بسلام فالجميع بخير.

لكلام جمانة رائحة تستطيع به أن تأخذك لعالم معطر بالتضحية والنبل ثم لا تلبث أن تستفيق على حقيقة رائحة الدم المغمسة بها يداها.

لماذا يختار الحزن أكثر الذين يمنحون فرحهم للآخرين كمهرج يبكي بعد انتهاء نمرته.. لماذا يهرب العدل في الأرض حين يرى أكثر الناس صدقاً وإيثاراً ويحمل مفكرته بعيداً عنهم مدوناً فيها (موعداً مؤجلاً).

بجبروت امرأة وعينين تفيضان دمعاً مكبوتاً تكمل جمانة حكايتها.

قضيت عمري وأنا أبحث عن الحب الذي ضاع مني في زحمة مسؤولياتي وركضي وراء لقمة العيش، وتأمين بيت يحميني من زمن لا يرحم ومن وحدتي، بعد أن تخطيت سن الخامسة والثلاثين بأشهر وكان العمر بمثابة يأس من إمكانية إيجاد زوج يكون عكازاً أستند إليها لو تجبر زمني علي.. حصلت على بيت بالتقسيط من خلال جمعية نقابة الحرفيين في إحدى ضواحي دمشق.. جعلت من هذا البيت جنة صغيرة عشقتها.. وبذخت عليه بأفضل الإمكانيات ليظهر على الشكل الذي حلمت به.. ونظراً لبعد المسافة بين مكان عملي وبيتي الجديد اشتريت سيارة صغيرة كانت السبب وراء معرفتي بعزام الشاب الوسيم الذي كان يعمل مديراً للمكتب الذي اشتريتها منه.. أنكرت إعجابي به أمام نفسي، وبكلامه ومرحه وخفة ظله.. أنكرت حلمي وهربت من مواجهته بأنه رجلي المنتظر.. كان سهلاً بالنسبة لي إبعاده عن عقلي بعد أن اعتدت على نمط معين من العيش سارت معه أيامي على نحو جميل ومريح، بوجود إخوتي ومحبتهم واهتمامهم.. إلا أن ملاحقة عزام لي وسؤاله الدائم عني جعلني أضعف وأتبرأ من كذبي على نفسي.. حاولت لملمة الفوضى بعدما هجرني الهدوء وصرت أبحث عن أماكن داخلي أخفي فيها رياء العمر بتوتر وخجل غير قادرة عن الإفصاح عنهما.

تطورت علاقتنا ولم تتعدى ما هو ممنوع.. بل تجاوزت بفرحي وضحكي ومرحي وصخبي وأحلامي حدود العمر.. كان رجلاً رائعاً بالنسبة لي فلم يكن يمضي أسبوع دون أن يفاجأني بهدية وباقات ورد فضحت تلك العاشقة التي تسكنني.

كبر حبي له وازددت حرصاً على ألا أفقده مهما كان الثمن.. عشت

سعادة طيلة أربعة شهور هي عمر علاقتنا قبل أن تتوج بالزواج.. أربعة شهور أطالت بعمري مائة عام من الفرح منحت نفسي بهم إجازة طويلة من الهم والألم.

منذ اليوم الأول الذي خلعت به فستان فرحي.. ارتداني كفن الخيبة والخوف والصدمة بتحول الملاك الذي أحببته إلى ذئب وعرفت من يومها المفاجآت التي ستحمل كل ما هو سيء تباعاً.. واستمر بملازمتي حتى أصبح الرداء بالياً ورثاً كثوب متسولة على أبواب عمر غاب عنه الفرح والأمان، واستقرت مكانه مشاكل شائكة عجزت عن حلها مع زوج مستهتر، أناني مدمن على الكحول والقمار.. ثوباً لم يعد بمقدور جسدي احتمال رائحته النتنة والعفنة.

كيف باستطاعة إمرأة نسيان عمرها الجديد المسمى بليلة الدخلة؟ كيف باستطاعتها نسيان كل مارسمته لتلك الليلة من أحلام، ستبدأ من خلالها بتنفيذ كل ما حلمت به مع رجل من المفروض أن يشكل منعطفاً مهماً ورئيسياً، لحياة جديدة وولادة أمل بعد طول صبر.. رجلاً ليس زوجاً فحسب بل حبيباً وصديقاً وأخاً وزوجاً وأباً لأطفالها؟

لن أنسى تلك الليلة التي دخلت بها كملكة مرتدية تاج مملكتها الجديدة، تجر وراءها فستان زفافها كطاووس يتبختر مختالاً بجمال ألوانه وعنفوانه.. فرحة كطفلة صغيرة حصلت على هدية أحبتها بعد طول انتظار.. لكنها اكتشفت أنها ذيل خيبة ومرارة، وفرحة لم تدم إلا لدقائق حين رماني على السرير.. ولا أدري لماذا تخيل لي بأنه مجموعة من الرجال يتناوبون على اغتصابي.. الأول اغتصب حلمي البعيد الذي توهمت أنه تحقق اليوم.. والثاني اغتصب فرحي الذي انتظرته خمساً وثلاثين عاماً.. والثالث مازال يغتصب كلمات الرجل الذي أحببته.. كلماته التي كانت تقول لي..

المرأة لا تحرك مياهها الساكنة سوى نغمات موسيقى الكلام، التي تسكب داخل أذنيها من رجل يحبها وتحبه.. وجسدها لا يشتعل إلا بأصابع تحرك أعماقها النائمة وتوقظها بها لمساته الحانية الدافئة..

وماعدا ذلك، شهوات تحركها غرائز حيوانية لا تحمل معها إلا قتل كل حلم لذيذ.

كنت أتألم ألماً جسدياً كاوياً كحديد محمى.. ألم دفعني لضربه لكنه كالثور الهائج لم يكن ينصت إلا لحيوانيته.. شعرت بإثارته ورغبته بي أكثر كلما سمع صوت بكائي ورجائي.. ويزداد شهوة واستمتاعاً كلما حاولت دفعه عني.. وعندما انتهى من حرث حقلي انتزع جسده عني ولم يكلفه النوم إلا عدة ثواني، سمعت شخيره بعدها.

هل خدعت؟ هل هذه هي حقيقته المريضة أم أنها أشواقه وحبه هي ما دفعه لعمل ذلك.. هل يمكن أن تكون لعبة حب تعبث معي! كطفل يدق جرس الباب ويهرب؟ أسئلة كثيرة ظلت تلازمني حتى انبلج الفجر وأنا عاجزة عن إيجاد أجوبة ربما ستكتشفها الأيام.

وتتالت الخيبات وراءها خيبات.. حولني لزهرة ذابلة قطفت ولم يعد بالإمكان غرسها من جديد.. زهرة في طريقها إلى الموت تعيش ذعراً يومياً خوفاً من احتمال موتي نتيجة للضرب، من رجل مخمور لا يعي ما يفعله.. أم تراه يتخذ من ثمالته حججاً يتذرع بها لكل مايفعله، كي لا يتحمل مسؤولية أفعاله أمام الآخرين؟

كنت أبدأ صباحي مع فنجان قهوتي مترصدة المرأة التي كنت عليها البارحة.. المرأة التي ارتطم رأسها بتلك الزاوية، والتي نزفت على هذه الأريكة، وهنا أمام الطاولة أطفئت السجائر على جسدها.. وسحلت من شعرها كنعجة من الصالون إلى حوض الاستحمام، وسكب الماء البارد فوقها في عز الشتاء.. ودفعها بقدم ذلك القذر كلما حاولت تخليص نفسها منه.. كنت أترصدها كضحية.. وأترصد نفسي كيف بإمكاني مساعدتها.

صرت كموج بحر تارة هادئ، وتارة يتكسر على الصخور.. وتحول حبي له كحب غريب لبلد يخاف منها، لم يكن يملك لرد خوفه إلا مزيداً من العمل والغواية لاسترضائها.. آلمني الحاضر الذي أسامح به أخطاء عزام المتكررة والتي لم تعد مقبولة ،لكنني كنت أمنحه الفرص التي تجعله يعود لرشده..

وأعاقب نفسي زاجرة إياها..

أية فرصة أيتها الغبية تمنح لمقامر؟ أية فرصة تمنح لمدمن يرفض بقرارة نفسه الشفاء؟.. بل يجد سعادته عندما يمارس وحشيته بضربك وإهانتك واغتصابك كل ليلة.. ليصحو صباحاً معتذراً متحججاً أنه لم يكن في وعيه.. وأنت كالحمقاء، منذ سنتين تصدقين أكاذيبه بحجة فرص جديدة لا ينفذ منها شيء.. فقط لتثبتي لنفسك بأنك شجاعة واستطعت ترويض حيوان شرس.. رافضة الاعتراف باستحالة ترويض ذئب لجعله حملاً.. وإن حصل.. هل نسيت أن هذا الذئب سيعود لأصله ولن يتردد بالتهامك حين يجوع؟ أم أنك أنت التي تطيلين بعمر العلاقة لأنك تحبينه، رافضة التخلي عنه متحدية نفسك بانتصار مزعوم.. متناسية بأنك تطيلين بذلك عمر أزماتك.

كم من المرات غفرت خياناته ملقية اللوم على نفسي، واتهامي لنفسي بالتقصير بحقه.. لم أفكر لحظة بما سنفعله حين سحبت آخر رصيد متبق لي في البنك لسداد ديونه.. كم من المرات طردت أصدقاء طاولة القمار من البيت، ولكن دون جدوى.. كم كانت ميتاتي النفسية أقسى على روحي من ميتاتي الجسدية التي لم يترك بها مساماً يخلو من لكماته وضرباته.. كم احتاجت روحي لشيء من الاطمئنان والعاطفة والحب والاستكانة، والهدوء والأمان.. الأمااان.. هو كل ما كنت أبحث عنه.. انتصرت على ميتات كثيرة وهربت من الموت أكثر من مرة.. لكن ما كان يدهشني هو بقائي على قيد العذاب بحسب المقاييس الإنسانية، وبمشاهدة ما تعرضت له من بشاعة وفظاعة الضرب المبرح الذي تعرضت له، بكل قسوة ووحشية دونما أية شفقة وكيف أني لم أمت بالسكتة النفسية مثلاً، وأنا محتاجة لكل شيء تحويه العاطفة والقلب.. كان يأخذ كل شيء دون أن يمنح شيئاً.. معتزلاً العطف والوفاء والحب.. معتزلاً حتى الحياة لكنه كان مستفزاً لها ساخراً يمد لها لسانه شامتاً، بأنه مازال يعيش.. ساخراً متجاوزاً كل

الحدود المترتب عليها وقفة احترام منه.. كنت أتمنى أن يموت ميتة تليق بأفعاله.. ميتة تختلف عن كل الميتات الطبيعية، فقتل رجل كهذا قمة التعقل.. وأن يرحل هكذا بدون ميتة تليق به.. هذا لعمري لا يجوز.

سئمت من الشجار معه بعدما اكتشفت بأن القليل منه منعش والكثير قاتل.. كنت أشعر بأني مازلت أحيا به، ومازال يسكنني حبه بعد كل مشاجرة إلى أن انطفأ كل ماعشته، وبدأ الحب يحترق على نار هادئة وتحول لرماد صامت..

ماذا يتبقى من الحب حين يغيب بحضوره الاحترام؟ كيف بمقدوري أن أبقى مستمرة بتضحياتي له وقد سحلت أحلامي، في شوارع ذاته المفتقرة للشعور بالعطف، على امرأة بدد رجل ثروات أحلامها على فقراء مشاعره الفقيرة المعدمة.. وسحلها جثة خالية من الروح كمومياء يطوف بها في شوارع جشعه وقسوته..

كانت أحلامي هي ثروتي وكانت بالنسبة له مجرد تسلية، تنتهي مع امرأة أخرى عند طلوع الفجر.. تعلقت به لدرجة أنا نفسي لم أصدقها.. وكنت سعيدة به كأنني قارورة عطر تنشر عبق أريجها على الكون تنادي حيوات أخرى، تعيشها به وتملؤها حباً وعشقاً.. وهو يحاول إيذائي بالضرب وبكلماته النابية البذيئة ومناداتي بألقاب أخجل من نفسي وأخجل بالنيابة عنه، حين يناديني بها.. سئمت من غبائي وانتظاري لرجل لا يمكن أن يكون إلا ماهو عليه.. **سئمت الركض وراء لحظة حلم يأتيني بها يفتش ذاتي الحميمية، ويبحث مايعتريني من آلام وينتشلني من حافة القلق والخوف، بدلاً من انتشال ما في محفظة نقودي من مال دون أي خجل..**

سئمت صبري بعدما استنفذت كل ما عندي من محاولات لردء صدع ذلك الحائط المتهالك.. وعجزت وفشلت وطلبت الطلاق ووافق بشرط الحصول على البيت والسيارة، وعندما رفضت هددني بحياة ستكون جحيماً علي أكثر مما سبق، وعشت ذلك الجحيم.. وصدق بوعده.. لأول مرة يفي بما وعد به.

بـدأت براعـم الحقـد تنمـو داخـل شـراييني آخـذة بالنمـاء، فـي شـبكتي العصبيـة.. راكضـة كنسـغ فـي جـذوع شـجرة عمـري الحزيـن، التـي تحولـت لأوراق خريـف تخشـخش متكسـرة تحـت أقـدام تجاهلـه واسـتهتاره وخياناتـه غيـر آبـه بفصـول الحـزن والخـوف فـي نفسـي، والولـه والحاجـة.. والبراعـم تكبـر وتنضـج إلـى أن أحرقـت بـذور الشـجار ذلـك العشـق الـذي تحـول لصمـت مخيـف، غامـض كسـكون ليـل مدلهـم مظلـم فـي غابـات تحمـل رياحهـا نحيـب ابـن آوى جريـح، وحيـد منكفـئ علـى ألمـه.

جـاءت الليلـة الأخيـرة.. التـي حملـت معهـا مفاجـأة مـن نـوع آخـر عجـزت عـن تصديقهـا.. تعالـت الأصـوات مـن الصالـون حيـث يجلـس كالعـادة مـع أصدقائـه يقامـرون.. ولـم يكـن مـن عادتهـم إصـدار أصـوات كمـا حصـل وقتهـا.. طـرق البـاب إذ كان مـن عادتـي قفلـه تحسـباً لأي طـارئ ومجيئـه يعنـي أنهـم غـادروا.. مـا إن فتحـت البـاب حتـى، **شـعرت بيديـه تجرانـي مـن شـعري كالشـاة ليطرحنـي أرضـاً، أمامهـم ملـقٍ بجسـده المنهـك علـى الأريكـة.. إذن أنـا التـي راهـن عليهـا بعدمـا اسـتنفذ كل شـيء.. صرخـت..أي كفـر الـذي جعلـك ترتكـب ذنبـاً باسـمي، لا علـم لـي بـه لأعاقـب عليـه بغفلـة منـي؟ لـم يعـد أمامـك مزيـداً مـن الوقـت لتأجيـل موتـك.. لـم يعـد هنـاك مبـرر لوجـودك.. لمـاذا تعيـش مكتسـباً أوكسـيجيناً مـن المفتـرض لغيـرك استنشـاقه حتـى لـو كان حيوانـاً.. مـاذا بقـي مـن حياتـي لـم تسـتبحه بعـد.. تحـول كل مـا حولـي إلـى ضبـاب.. شـعرت بتلـك اللحظـة فـي داخلـي أبوابـاً كثيـرة صدئـة كأبـواب السـجون تفتـح وتغلـق، تؤذينـي بصريرهـا متوتـرة وخائفـة مـن وقـع خطـوات مسـاجينها، الذيـن تجرهـم جنازيـر يختـرق صليلهـا أعماقـي مقتربـة منـي تحـاول قتلـي بمسـاعدة السـجان الـذي يقهقـه بصـوت عـال شـامتاً بـي محـركاً مفاتيـح سـجنه بيديـه المرتجفتيـن اللتيـن تقتربـان منـي.. كل شـيء تغيـر لونـه، ولـم أعـد قـادرة علـى رؤيـة شـيء سـوى أربعـة رجـال معلـق جسـدي علـى عيونهـم الثمانيـة.. ثمانيـة أذرع تمتـد نحـوي.. وأنيـاب لا أعلـم عددهـا سـتفترسـني.. وعديـم الشـرف**

مستلق بعينين مفقوئتين ويدين مشلولتين عن الدفاع عني.. لا أدري لحظتها أية لبوة قفزت من داخلي.. لبوة كانت تتمطى منذ أعوام تتسلى، بشحذ مخالبها لموقف كهذا ربما..

تناولت زجاجة الويسكي وقمت بكسرها بطرف الطاولة، وانقضضت عليه غارسة بقايا الزجاجة المدببة رؤوسها في قلب ذلك الوغد الملقى على عاتقه مسؤولية حمايتي.. هرب الرجال كفئران مذعورة مثلما هرب دمه الوسخ من جوفه.. قتلي له يعني قتلي الخوف الذي سكنني.. غرست الزجاجة في قلب رجل تجسد بشخصه الخوف الذي أفزعني.

اقتربت منه أفح في وجهه كلماتي التي سيسمعها قبل أن يرحل وللأبد.

هذه هي المرة الوحيدة التي لا أخاف بها منك.. أنا الآن سيدة خوفك المتآكل كجثة عفنة تاهت ملامحها الحقيقية.. حاولت عبثاً زرع أظافرها بوجه قاتلها.. هذه هي المرة الأولى التي نتحاور بها بصدق وهدوء، دون أن نضطر لإزعاج الجيران باتهاماتنا المتبادلة فيما بيننا.. هذه هي لحظة أصدق وأنقى حوار، وأجمل جلسة أعيشها معك بينما أنت مضرج بدمائك تتوسلني عيناك لأنقذك.. وما اختلافي عنك إلا بالهواء الذي أستنشقه.. أنا أيضاً مضرجة بأحزاني وقهري، ونزفي الذين لم تلحظهم يوماً.

جرحك ينزف ويداي تعبثان بدمك.. يداي اللتان طالما احتاجتا منك لمسات حنان تدفئ بها ثلوج قلبي.. يداي اللتان كانتا تعودان خائبتين كلما حاولتا ضمك.. لكنه وللأسف مثلك لا يعرف ما معنى أن تحبه امرأة.. مثلك لا يعي شرح مفردات أحاسيس العشق.. معك لا يجدي نفعاً أي شرح عن الأحاسيس والمشاعر.. عبث من يحاول ذلك.. كمن يشرح الألوان لمن ولد أعمى.

وجهك يزداد شحوباً وصفرة كوجهي، الذي قتلت حمرة خديه بصفعاتك ولكماتك نازعاً عنه صفاءه ونقاءه، وأذبلته لترضي عنجهيتك ووصوليتك..

ها أنت الآن قنفذ يحاول الدفاع عن نفسه بإبر لم تعد صالحة للدفاع عن نفسها.. وها أنت الآن ذئب مريض سيموت بعد قليل.. ذئب تكور على نفسه، ماتت حيله ومات ذكاؤه.. وأنا ليلى القوية الحاملة بيدها سلة مليئة بإشارات الاستفهام المعجونة بالحزن، كقطع حلوى تنثرها في غابات عمرها ولم يعد يهمها المضي أو الاختيار بين الدرب الطويل والدرب القصير، طالما أن نهاية الطريق سيوصلها لحبل المشنقة بدلاً من بيت جدتها المليء بالأحلام والزهور والسكاكر الملونة.

جسده ينفض كجناح بعوضة ماتت للتو.. عيناه نصف مفتوحتين كثعلب مراوغ، يرفض تصديق انتهاء عصر دهائه.. أقترب منه أكثر وأكثر بفحيح صوتي الذي تحركه أفعوانية تتحرك بداخلي.

لماذا لا تموت؟ لماذا تتشبث بحياة كانت بالنسبة لك سكين تذبح بها كل من يعيش معك، منتشياً بكأس العرق ساكباً ماءه في جوفك متطايرة ناره وشره للذين حولك؟ لماذا عيشك، وقد استبحت دم أحلامي على عتبة انتظاري لك كل ليلة مقبلة نحوك لتضمني.. وحين كنت أفتح لك الباب تدفعني باشمئزاز وتدخل الحمام تطهر جسدك مع أغنية تدندنها.. بينما ينسكب علي ماء الذل المغلي بالوجع والألم، وحقدي عليك.

أقترب أكثر منه وعيناي تقدحان شرراً قائلة له

هل تعلم مامعنى حاجة امرأة لرجل؟ هل تعي ما معنى أن يسكن جسدي شهوات آلاف النساء، والخيانة ليست من طبيعتي؟ هل شعرت يوماً بي وأنا أعيد لصق الصور الجميلة التي مزقتها بيديك غير مبال بحاجتي إليك، وتوسلي للحظة حب وتوقي للأمان؟.. الآن استحم بدماء أحلامك كالماء الذي كنت تسكبه على جسدك ماسحاً عنه بصمات عاهراتك الرخيصات.. فبعد هذه اللحظة لم يعد بمقدورك أذيتي.

الآن سأطوي ملفات عمرك المسجل بداخلها تاريخ إذلالك، وتجاهلك لي دونما شفقة على الحب الكبير الذي حمله قلبي لك.. الحب الذي

تسترت به على كل الجروح التي سببتها آلامك، تاركة وراءها ندبات كلما حاولت الشفاء منها نكأتها سكين خياناتك مع امرأة جديدة مارست معها وَلَهَكَ وعشقك على سريري.

أرقب نبض عروق رقبتك المنتفضة بحقد.. رقبتك التي طالما أحببتها ولم يخطر ببالي يوماً أن ينبثق عن هذا العشق قتل بدلاً من انبثاق فجر بولادات جديدة لحياة تستحق العيش.. عيناك جاحظتان تحملقان بي رافضتان تصديق ماحصل.. أقرأ في عينيك كل ماعجزت حنجرتك عن قوله.. حنجرتك التي تحشرج بكلمات مبهمة لم يعد يعنيني تفسيرها.. فيما مضى كنت أركض وراء أنفاسك مستفسرة ما يعتريها.. ألهث وراء همساتك حين كنت تسكب في أذني كلام حب، اكتشفت فيها فيما بعد غاياتك.. حرصت على سعادتك وهدوئك كأم تخرس أصوات ضجيج يحاول إزعاج وحيدها.. حتى الطعام الذي كنت تحضره لم أهنأ به يوماً.. بخيلاً كنت بكل شيء.. وماذا يترجى المرء من بخيل؟

أنينه يخفت رويداً رويداً.. وأنا أريد الاطمئنان على موته قبل وصول الشرطة الذين حدثتهم قبل قليل كي أسلم نفسي.. أغرس من جديد عنق الزجاجة في قلبه.. لا أحد يمكنه التصديق بأني لم أقتل شخصاً بل قتلت مجموعة حالات متمثلة بصورة إنسان.. قتلت به الوغد.. قتلت به المذِل.. قتلت به الغادر.. قتلت به الوصولي.. قتلت به الخائن.. فتشت كثيراً عن الشرف لكن للأسف لم أجده.. لقد قام هو بقتله منذ زمن بعيد..

ها قد وصلت سيارات الشرطة.. أكنسته بعيني مشمئزة منه كحشرة تشعرني بالقرف عند رؤيتي لها.. بقي أن أقول لك.. بأني سأطلب من القاضي وأرجوه أن لا يعدمني.. ليس خوفاً من حبل المشنقة.. بل لأقضي بقية عمري وأنا مستمتعة بقتلي لك.

کانفاس ناقص



كأنفاس ناقص

كخلية نحل لا تهدأ أراني أتحرك، في هذا البيت الذي لا تنتهي طلبات أصحابه عند حدود معينة.. وكأني دمية ربطت بمفتاح (زمبرك) كلما أبطأت حركتها ربطوها من جديد بطلبات جديدة.. وعلى الرغم من أنني ارتقيت من خادمة تقوم بأعمال التنظيف إلى مشرفة على الخدم والأعمال.. غير أني وجدت هذا المنصب يلقي بثقله علي أكثر من ذي قبل.. لأن احتمال أية أخطاء ستكون حتماً مسؤوليتي أنا.

أحياناً كثيرة تجتاحني رغبة في رمي كأس الماء على وجوههم.. أو سكب فنجان القهوة الساخن بحضن سيدة هذا البيت المتعالية صارخة بالجميع.. ألا تفقهون بأني لست آلة لا تتعب، أم أني باعتقادكم آلة تفريخ للصحة والنشاط لديها تاريخ إنتاج غير منتهي الصلاحية؟

خمسة عشر عاماً وأنا أعمل في هذا المنزل الكبير دون أن أفتح فمي بكلمة اعتراض واضحة.. الاعتراض هنا ممنوع ومن لم تعجبه قوانين هذا البيت فليذهب إلى الجحيم.. لذلك تجدني أشتم.. أنتقد.. أحذر.. أتوعد بترك العمل.. أغضب.. لكن بيني وبين نفسي طبعاً دون أن أجرؤ على نزع ابتسامتي محاولة جاهدة رصد انفعالاتي جيداً وكبت مشاعر الحنق والغيظ التي تصيبني في كثير من الأحيان عندما أكون كبش فداء و(فشة خلق) الست الهام الرسامة المشهورة المغرورة النكدية صاحبة الصوت الحاد والذي يعمل على وتيرة واحدة دون تداخل للطبقات في أوتار حنجرتها.. دون إعطاء فرصة تمكّن أذنيك من أخذ استراحة بين فاصل وآخر.. فواصل تختلف عن تلك التي يتم بها تبادل الاتهامات بينها وبين زوجها حول تربية ابنهما الوحيد المراهق المدلل وبدلاً من إيجاد طريقة للخروج بحل أراهم يكيلون التهم وإلقاء فشل كل طرف على الطرف الآخر محاولاً دفع التهمة عنه بينما ابنهما

يستمع في غرفته للموسيقا غير آبه ولا مبال بما يحصل.

أنا طبيب ألا تفهمين ذلك؟ هل يجدر بي أن أقدم استقالتي من عملي وأقدم أوراق اعتمادي لك كمربية لابنك.. ابنك (يامدام) مستهتر نتيجة لانشغالك عنه وتركه بيد المربية لأن حضرة الرسامة مشغولة طوال الوقت في مرسمها تحضيراً لمعارضها وسفرها وحفلاتها.. لن أنسى كم من المرات وأنا قادم من عملي رأيته يزحف نحو غرفتك محاولاً الدخول لغرفتك الموصدة دائماً في وجهه.. فالدخول ممنوع لأي كان ريثما تنتهين من رسم اللوحة التي ستفتتحين بها معرضاً في مكان ما من العالم.. لدرجة أنك كنت لا تكلفين نفسك قضاء بعض الوقت معي لحين عودتي مرة أخرى إلى العيادة.. وكان ذلك الوقت بالنسبة لي فرصة كي أبقى معه ريثما تتلقفه يدا المربية.

هذا جزء من عملي لا أستطيع الاستغناء عنه.. ثم إنه بحاجة إليك أكثر مني.. بحاجة لحوار..... وقبل أن تنهي كلامها خرج وصفق الباب بشدة وكالعادة كان أكثر الأحيان لا يعود إلا بعد يومين أو ثلاثة..

يتمطى ويتثاءب ويستيقظ داخلي تشفٍ أنثوي كلما سمعته يتهمها بالمغرورة الغبية التي لا تصلح لعمل شيء إلا الرسم وتنسى واجباتها كأم وكزوجة.. هذا التشفي نتيجة لما أشعر به حيال هذه السيدة الأنانية التي لا تكف عن شتمي كلما ارتكبت خطأ غير مقصود.. لذلك تراني أنتشي غبطة بداخلي كلما وجه لها زوجها انتقادات حتى ولو كان مردها للمصلحة العامة..

حاجات الإنسان تتغير دائما نتيجة الظروف وهذا أمر طبيعي.. لكن حاجاتي لم تتغير يوماً.. ربما لأنني عاجزة عن تغيير الظروف وكل ما تمنيته وحلمت به هو منزل صغير وحديقة جميلة بجانبه.. وزوج عطوف وطفل قادرة على شراء لعبة جديدة له.. لا ألعاباً يرميها ابنها المدلل بعدما سئم منها طالبة مني أخذها لإخوتي الصغار الذين، يتناوبون على اللعب بها ريثما يسأم من لعبة أخرى.. أسباباً كثيرة أججت داخلي نيران الغيرة من الست الهام.. منها أنها لا تملك جزءاً من الجمال الذي أملكه.. ولا من الطيبة التي يحملها قلبي الكبير.. ولا تحملها للمسؤوليات التي

أحملها مع أبي بائع الفول المسؤول عن أسرة مكونة من خمسة أفراد مع أمي.. أعلم بأنني أخترق قوانين الطبيعة حين أقارن نفسي بها.. شتان بين من خلقت وبفمها ملعقة من ذهب وبين من خلقت وهي تحلم كيف تحصل على دفتر وقلم.

دموعي المتساقطة الآن هل هي عجزي عن شراء ألعاب أو ملابس جديدة لإخوتي.. أم لعدم قدرة أهلي إكمال دراستي وعملي كخادمة.. أم عدم حصولي على زوج يريحني من هذا العمل الذي أنهكني.. أم حاجتي للمسة حنان واحدة وكلمة شكر بدلاً من الإهانات المتكررة بسبب وبدون سبب.. أم أنها رائحة البصل!

في الماضي كنت أبتلع دموعي وأداري خجلي عندما كنت أتلقى الشتائم من الست الهام لسبب ما.. رغم قسوة ذلك الشعور الذي كان يؤذيني إلا أنني كنت أتجاهله وأتناساه في اللحظة التي أزجر بها الخادمتين، دون التفكير بشعورهما الذي كان يهزني من الداخل.. كنت دائماً أجد المبررات لما أتصرف به.. فأنا المسؤولة الوحيدة لما يمكن أن يحصل منهما لأخطاء لن يتحمل نتائجها سواي.. أم أنه شعوري بالدونية الذي سمح لي بزجرهما حتى لأتفه الأسباب طالما أنهما لم تحاولان يوماً الانقضاض على وجهي بمخالبهما تمرداً.. وهذا ما جعلني أتمادى أكثر كيف يمكن لقوي أن يكون قوياً ما لم يجد أمامه ضعفاء يعززون هذه القوة لديه باستكانتهم؟ الست الهام لا تقوى على زوجها.. لكنها قادرة على إفراغ حقدها منه وعدم قدرتها على السيطرة عليه بي أنا.. وأنا أفرغ عصبيتي التي لا أقوى على سكبها في وجهها فيمن هن أضعف مني وهن ربما يفرغن ما لا تقدران عليه على من هم أضعف منهن..

إنها سلسلة بشرية تتكلم بالعدل والمساواة لكنها مع الأسف مازالت تمارس قانون الغاب..

عندما يحاول أحد ردء الصدع عن جدران بدأت تتفسخ.. فإننا نراه يعمل ما بوسعه لتفادي مثل هذه الكوارث الممكن حصولها.. كل ذلك لا ينطبق على أصحاب هذا البيت المتشبثين بعنادهم رافضين

حتى الاعتراف برؤية ذلك الشرخ الذي سيودي حتماً للانهيار ما لم يتم ترميمه.. هنا في هذا البيت كل يرى حسب زاوية رؤيته.. فلا الرجل يحاول التخلي عن عنجهيته واعترافه بالهزيمة أمام منزل بدأ ينهار ولملمة ما وقع، كمحاولة لإصلاحه تفادياً لأخطار أكبر.. ولا الزوجة تتخلى عن غرورها المريض الذي يكافح كل من يتهمها بالتقصير شاهرة في وجهه صورها أمام لوحاتها، ومعجبيها في المعارض التي تقيمها بدول العالم دون أن تدرك أن أهم لوحة هي اللوحة التي رسمها رحمها، وأطلق أول صرخة منذ أربعة عشر عاماً.. لوحة من لحم ودم يعجز كل رسامي العالم على إبداع صورة مثلها.. لكنها مع الأسف أهملته حتى بات يستهزئ بها وبلوحاتها ومعارضها ومعجبيها، حين قال لها ذات مرة:

- جميع هؤلاء أعجبوا بك من خلال لوحاتك.. وكان من الأجدر أن أعجب أنا بك كأم وكإنسانة.. كان من المفترض حصولي على توقيعك في مذكرات أيام عمري، وترك بصماتك على دفاتر ذكرياتي.. لكن مع الأسف تركتها خاوية وفارغة من أي معنى ممكن له أن يجعلني أشعر للحظات بأني بحاجة لحضنك، أركض إليه حين يغدر بي صديق.. أو عند الحاجة لنصيحة تخرجني من مأزق ما.. كيف لا؟ وأنا الذي كنت أحار عندما كنت صغيراً من هي أمي.. أنت أم المربية !!

أتساءل دوماً.. ترى لو تبادلنا الأدوار.. هل سأصبح نسخة عنها.. أم أن العوز والحاجة هما سيدان يفرضان علينا الأدب والطاعة وبالتالي يخلقان أجواءً من الألفة والتعاطف بين أفراد العائلة الواحدة التي يؤمن أصحابها بمبدأ الإيثار على نفسه من باب الوجع الواحد.. أم أنه من باب التعويض كمجاملة لأننا عاجزين عن تقديم الأفضل والضروري في أكثر الحالات.

لماذا أفكر بها دائماً وكأنها عقدتي المستعصية عن الحل.. هل لأننا امرأتين تحاور إحدانا الأخرى بصمت وتتمنى لو كانت الواحدة منهن مكان الأخرى وكلانا تأبى الاعتراف.. أم أن هذه الفكرة غير واردة إطلاقاً من طرفها ووحدي من أحاول زرع وجودها بل وأفكر عنها على أنها

موجـودة بالفعـل داخـل عقلهـا.. أم هـو شـعور بالانتصـار عليهـا مـن حيـث وجـودي فـي بيت رغم فقره إلا أنه محافـظ علـى سكينته ودفـء مشاعر أصحابـه وحبهـم لبعضهـم البعـض.

متـى نعلـن انسـحابنا مـن تعصبنا لأفـكار لا تعجـب سـوانا.. أفـكار مغـرورة لـم تنجـب يومـاً إلا مزيـداً مـن المشـاكل بعـد استسـلام الطـرف الآخـر حيـن اقتنـع بـأن كل مـا يحـاول فعلـه لإصـلاح الشـرخ الحاصـل يذهـب أدراج ريـاح الفوضـى العارمـة داخلنـا..

هـذا مـا تشـعر بـه السـت الهـام وترفـض الاعتـراف بـه.. رغـم أنهـا باتـت مقتنعـة بأنهـا أصبحـت خـارج ملعـب ابنهـا وزوجهـا

إن أكثـر الرجـال الذيـن يريـدون مناشـدة الهـدوء لا يترددون فـي إيجـاد عشـيقة لهـم خـارج إطـار بيـت الزوجيـة.. ولا يمانـع بالاسـتغناء عـن بيتـه لأيام حيـن تسـيطر عليـه حـالات الجـوع الجنسـي والاسـترخاء للذة.. وهـذا حـال الدكتـور أنـور الـذي يتغيـب لأيـام عـدة عـن منزلـه بحجـة المشـفى والمناوبـات.. كيـف بمقدورهـا تصديقـه إذا كنـت أنـا نفسـي غيـر مصدقـة.. أم أنهـا باتـت بطلـة فـي المكابـرة؟

هـي أيضـاً تخونـه مـع لوحاتهـا وتمنعـه مـن الدخـول عندمـا تغلـق بـاب المرسـم وراءهـا.. نعـم هـذه خيانـة عندمـا تأخـذ الوقـت والذي مـن المفترض أن يكـون لإبنهـا وزوجهـا.. نعـم هـي خيانـة وأنانيـة عندمـا تحـاول التسـتر علـى عجزهـا بخلـق أجـواء يمكنهـا أن تعيـد الـروح والحيـاة لهـذا البيـت.. أم أنهـا تتسـتر علـى أخطائهـا معتبـرة أنهـا البوصلـة الصحيحـة لاتجاهـات معتقـدة بأنهـا هـي الصـواب.. أنانيتهـا كانـت متلازمـة عندهـا بمركـب نقـص لـم تكـن تسـتطيع تعويضـه إلا بالرسـومات وبافتتـاح المعـارض، فسـماع كلمـات الإعجـاب والإطـراءات بفنهـا هـم السـبيل لسـد ثغـرات فشـلها فـي بيتهـا.

بصراحـة.. كثيـراً مـا جاهـد الدكتـور أنـور بضـخ الـدم فـي جـدران هـذا البيـت محـاولاً إعـادة الحيـاة إليـه.. لكـن السـت الهـام كانـت تضـرب بفرشـاة لامبالاتهـا ألوانـاً لا تليـق عناصرهـا المتدرجـة عشـوائياً وبـدون ترتيـب بـردم الهـوة الناتجـة عـن سـوء تصرفاتهـا وأنانيتهـا وغرورهـا مـا يزيـد مـن انعـدام

التفاهم بينهما دون الوصول لنتيجة مرجوة بينهما.. لم لا تفكر هذه الحمقاء بمفاجأة.. أو مبادرة تدعو بها زوجها وابنها لقضاء إجازة خارج البلاد يعيد بها جميع الأطراف حساباتهم.. وخاصة هي ؟

لماذا يقوم الأغنياء بتعقيد الأمور أكثر من اللازم.. أم أنهم ينظرون للأمور من زوايا مختلفة لا نحسن نحن رؤيتها لأنها لن تعجبنا.. نحن كبشر أفضل منهم بكثير.. لأننا قادرون على مصارحة الطبيعة بما يختلج في نفوسنا حينما نذهب لقضاء إجازتنا الأسبوعية.. نتمرغ بتراب وحشيش الأرض.. نسكب ماء النهر والسواقي على أجسادنا من غير أن نفكر ببروتوكولات تمنعنا عن عمل ذلك.. نسرق الثمر عن الشجر ونعتبرها سرقة مشروعة تُجاري صفقاتهم التي تصيب أكثرهم بأمراض القلب الناتجة عن الخسارات الممكنة.. نضحك متى نشاء.. نلهو بالحصى ونرميه داخل بحيرة بينما عيوننا مشدودة تحصي عدد الدوائر التي تكبر مع كل رمية دون أن يستطيع أحد إسكات ضحكاتنا عند كسب الرهان.. نمتع أذاننا بأجمل أنواع الموسيقى التي تصدرها الطبيعة بسواقيها وأنهارها وحفيف أشجارها التي تصلي وتسبح بحمد خالقها.. هنا على هذه الأرض الخصبة نستعيد صدقنا.. وبراءتنا.. وعفويتنا.. وبساطة أشيائنا التي لا يملكها أحد إلا من يشبهنا.. نحن لم نتخرج من الجامعات.. لكننا تخرجنا مما هو أوسع علماً منها في مجالات كثيرة.. أهمها البساطة وعدم الرياء والتكلف.. والابتعاد عن أصدقاء المصلحة.. والأدب باحترامنا لكبيرنا.. وعطفنا على صغيرنا.. ماذا استفادت الست الهام من علمها وثقافتها وشهرتها بعدما فشلت في تربية ابنها اللامبالي والمستهتر الذي يسبق كلامه تفكيره حين يغضب غير مكترث بإلقاء كلماته الجارحة وصراخه أمام والديه.

أحياناً كثيرة ينتابني شعور بأن الدكتور أنور هو الفنان بشاعريته وبأنه هو من يجب أن يقوم برسم لوحات جميلة بلطفه وابتساماته، التي لا يبخل علينا بها ولا يتردد بإلقاء كلمات الإطراء والإعجاب كلما قمنا بعمل ما.. سرعان ما تجد الست الهام قادمة ب»مشرط» تجهمها الذي يقوم بتشريح ما يفعله عندنا نحن معشر الخدم.. لتجره من يده وتبدأ

كالعادة بمشاجراتها التي لا تتوقف إلا حين خروجه من البيت متفادياً صدامات أكبر كما يفعل في كل مرة.

من قال لها أننا نحن الخدم لا يزعجنا أيضاً صوتها وصراخها.. من أوهمها بأننا غير قادرين على مواجهة المشاكل وحلها.. من قال لها بأننا لا نسخر منها كلما سنحت الفرصة لذلك.. من قال لها أننا غير قادرين على نصحها وبأنها لا تعجبنا وغير قادرة على تحمل مسؤولياتها.. وأنها لن تستطيع عمل أي شيء بدوننا.. من قال لها بأننا غير قادرين على إرباكها لو حاولنا ذات مرة إدخال قطة لمرسمها ولصق قطع من اللحم على لوحاتها .... مثلاً.

للفقراء النصيب الأكبر من السعادة التي توفرها لهم أصغر الأمور التي لا يبالي بها الأغنياء.. هم لا يعلمون بأن السعادة هي عبارة عن عجينة اختمرت بالحب.. ونضجت بالألفة وتغذت على التفاهم وانصهرت بنور الصدق والتسامح.. عجينة موادها الأولية التصالح مع الحياة بعيداً عن التكلف والتصنع والمجاملات المبالغ بها للوصول لمصلحة ما..عجينة السعادة هي عجينة غير نسبية قابلة للزيادة وللنقصان.. للمد وللتقلص.

في الآونة الأخيرة حل مكان غيرتي إشفاق على الست الهام.. إذ اكتشفت مقدار غبائي حين حاولت مقارنتي بها أو حتى شعوري بالغيرة لسبب بسيط ليس له علاقة بالمكانة الاجتماعية أو لأنني خادمة.. بل لاقتناعي بأنني عشت ولامست عمق الأشياء في منزل يخطف أبصارنا من الخارج ثم لا نلبث أن نكتشف أنه كأكثر الإعلانات المبهرة لمنتج يغريك بشرائه وتندم فيما بعد على ذلك من سوء التصنيع.

تراودني أسئلة كثيرة كان بودي لو أطرحها عليها، مثلاً لو سألتها: ماالفائدة من الربح الذي جنيته ببيع تلك اللوحات إذا كان الربح قائماً على خسارة زوجك وابنك؟

ربما جاء جوابها بأن روحها داخل أصابعها التي رسمت بهم الحب والقدسية والعبث والجنون والأحلام والموت والحياة.. وأجاوبها:

لكن للقلب روح أيضاً وللمشاعر روح.. وللعاطفة روح.. وللسان روح

تنطـق عـن الأرواح السـاكنة دهاليـز تلـك الأعمـاق التـي تحـاول النطـق بواسـطته.. ربمـا توقفـت روح أصابعـك ذات يـوم لعطـل فنـي مـا أصـاب سـلامياتها.. بمـا سترسـمين عندئـذ؟ وكيـف سـيكون بمقـدورك إصـلاح ذلـك «العطـل»... سـتجاوبني بـكل عنجهيـة:

زوجي طبيب سيعالج الأمر..

وهـل ستقبلين بأن يعالجـك كأنـك حالة مرضية ينظر إليهـا بعيـن طبيـب محايـدة.. دون لمسـها بحـب أو تقبيلهـا.. هـل لاحظـت بأنـك أول مـن التجأت إليه هو زوجك؟ كيف تجاهلت اللجوء إليه في لحظات ضعفك.. الضعـف فـي الحـب قـوة، والمكابـرة مقبرتـه.

ستجاوبني بتكبر وجلفة

سيكون ابننا رسول السلام بيننا.

كيـف سـينقل رسـالة السـلام المفتقـد إليـه أصـلاً.. كيـف سيسـتجيب لدعوتـك تلـك وأنـت مـن قمـت بسـلبه طمأنينتـه.. نزعـت عنـه رداء الأمـان وأنـا شـاهدة علـى ذلـك عندمـا كنـت أبعـد أظافـره التـي كانـت تقضمهـا أسـنانه حين تتابعك نظراته وقتما كنت تخرجين مسرعة من البيت للحاق بمعـرض مـن معارضـك أو لجلسـة مـع صديقاتـك.. وكل ماكنـت تفعلينـه هـو طبـع قبلة على خـده مسرعة هـي الأخـرى.. وعندمـا تغيبين يلجـأ إمـا لحضنـي أو للحضـن الصناعـي الآخر(مربيتـه).

ستجاوبني بعصبية وقرف وهي تنظر إلي:

كفـي عـن هـذا الهـراء.. أرى صورتـي الآن داخلـك وكأنـك تقوميـن أنـت برسـم صـورة الشـيطان متمثـلاً بـي.. هـل هـذه هـي أنـا؟ مـن أنـت حتـى تتفوهـي بـكل هـذا الـكلام فـي حضرتـي.. أنـت مجـرد خادمـة لا يليـق بـك إلا بائـع فـول كأبيـك.. أو خادمـاً مثلـك كـي يكـون هنـاك تناظـر بينكمـا وبمقاسـات لا تختلـف كثيـراً لتكـون علـى نفـس شـاكلتها.

- أنـا لا أختلـف عنـك كثيـراً.. نعـم تفوقـتِ علـي وعلـى الكثيـرات بعلمـك وشـهاداتك التـي لا أملكهـا.. وقمـت برسـم لوحـات رائعـة.. لكنهـا مجـرد لوحـات صامتـة معلقـة علـى الجـدران ترتديـن بهـا ثيـاب الوقـت والجهـد

والإبداع عندما تبدئين برسمها.. لكنك تنزعين عنك بعد الانتهاء رداء الفنانة وتلبسين ثياب التاجر.. وأنا مجرد خادمة بسيطة لم تحصل حتى على الشهادة الإعدادية لكنني قرأت وطالعت واستعرت كتباً من مكتبتك هنا في البيت ومن المكتبات العامة.. وكنت أنجح بعلامات هائلة كلما كنت أقوم بحل أسئلة الامتحان في البيت وأمنح نفسي علامات أستحقها فعلاً بعيداً عن الشهادات الحكومية.. لقد أبدعت بخلق أجمل عائلة كبرت بها وكبروا بي حين ألبستهم رداء التحدي ليحصلوا بمساعدتي عما عجزت عن تحقيقه.. أبدعت برسم أصوات ضحكاتهم الملونة بألوان قوس قزح دون الشعور بالنقص أمام الأجمل.. بل التحدي لما هو أفضل.. كنت أمنح من تلقاء نفسي بدون مقابل وهذا أسمى أنواع العطاء الذي كان يعود إلي بعطايا أكبر رفعت من شأن عائلتي إلى فضاءات من الفرح والألفة والأمان.

أبي أيضاً لا يختلف عن زوجك الطبيب.. فما بينهما هو قاسم مشترك واحد اسمه (رجل).. حين يغيب تبحث أمي عنه.. وحين يحضر لا تعاتبه.. إن أراد حرباً معها جعلته المنتصر.. هذه وصايا جدتي لأمي ووصايا أمي إلي.. مئات الكتب التي درستها وقرأتها لن تغنك عن لحظة تناغم واحدة تكونين بها بطلة عشق في حكاية حب جميلة لا تتطلب منك كل مهاراتك في الرسم.. ارسمي بروح أصابعك لحظة حانية تمسحين بها على رأس زوجك بعد عناء يوم طويل وشاق.

ما هذه الوصايا البالية التي أكل عليها الزمن وشرب حتى ثمل.. وكونك خادمة وجاهلة فهذا يمنحك الحق كي تفكري على طريقة جداتك الأميات الجاهلات.. أنا فنانة مبدعة أحول الطبيعة للوحة صغيرة داخل قبضة يدي.. أختصر مساحات الكون بخطوط لا يجاريني بها أحد.. أحول القبح جمالاً.. وأصنع للشيطان إن أردت أجنحة ملائكة.. أسلط بلوحاتي سيوفاً على رقاب أعدائي.. أرسم ملاحم بطولات ممهورة بتوقيعي.. أعيد الشيخ إلى صباه.. وأشكل مراحل التكوين على طريقتي.. وكما يحلو لي

- هؤلاء جميعهم مسجونين داخلك.. حولتهم لأعمال تفرضين من

خلالها سيطرتك عليهم بعدما عجزت عن إلقاء القبض على زوجك وابنك وإحضارهما أمامك ليقدما الولاء والطاعة.. كل الملاحم البطولية التي اخترعتها أوهامك.. وكل تلك الجيوش المهزومة والمنتصرة في لوحاتك.. وجميع الرجال الراكعين.. والنسوة الغاضبات.. كان ينقصهم همس الروح الذي عجزت عن خلقه وتصويره بلغة حية.. لماذا تعتقدين أن الحب عبارة عن حرب معلنة يجب أن تخرجي منها دائماً منتصرة؟ خدعت نفسك حين أقنعتها بأن التكبر والتصنع والغرور هم دواء الرجل.. خدعت نفسك حين اعتقدت بأن مخدعك يحتاج إلى بروتوكولات وقفازات ودانتيل وتجهيزات.. من نزع عن عقلك بأن الرجل مهما علا شأنه فهو في النهاية طفل يرغب باللعب، ولا يعنيه دخول ثقافاتك وعلمك معك إلى غرفة النوم لمشاركته فراشه الذي يعتبر نفسه بداخله بأنه أول الرجال وآخر الرجال، بل ويرفض مشاركته أي شيء ولا حتى مجرد شرودك للحظات تلهيك عنه.. من قال لك بأن الرجل حتى ولو كان سلطاناً.. لا يتلذذ بشرب قهوته إلا من يديك.. من أباح لك الاستيلاء على عرشه الذي صنعته له الطبيعة، منذ خلق الله آدم إلى اليوم.. سواء كان طبيباً أم مهندساً أم سائقاً أم طباخاً.. ففي النهاية هو رجل.

استيقظي يا سيدتي من غيبوبتك وفكري جيداً بأن العطاء هو الحياة.. والحياة ليست مجرد لوحة ننظر إليها ونبدي إعجابنا أو امتعاضنا منها.. تذكري بأن لوحاتك لن تمسك بك إن أُنهكت يوماً ما أمامها.. وبأن العرفان بالجميل من الآخرين هو أجمل نهاية عند آخر لحظة لنا في الحياة.. نودعهم حاملين أزاهيرهم ودعواتهم وحبهم وصلواتهم.

أصحو من شرودي على صوت الست الهام غاضبة

يا (زفت).. هل أصاب الصمم أذنيك؟ ألم تسمعينني منذ مدة وأنا أصرخ وأنت هنا شاردة.. أراك كنت تفكرين بسائق عربة أمير البلاد.. تقولها ساخرة وتتابع

أحضري لي فنجاناً من القهوة للشرفة..

أمرك ست الهام.

حب مزور



حب مزور

لا أريد أن أهنأ برجل واحد.. أرفض الاكتفاء بوجبة دسمة كل أسبوع على الأقل.. لن أنشد الراحة والهدوء والاستقرار.. أريد أن أعذبهم ويعذبوني.. لم تعد تقنعني العلاقة التقليدية المختومة بشاهدين وطوابع ممهورة بختم قاض شرعي يوثق زواجاً سينتهي بالروتين الممل بعد إنجاب الأطفال وانتظارهم ريثما يكبرون وربما تركوك وأنت بحاجة إليهم أو قاموا برميك في دار للعجزة لتتولى مسؤوليتك نيابة عنهم.

لا أريد لتلك الشراسة أن تقع في فخ تنصبه لها الطيبة.

كانت نهال ترمي بحروفها في بحيرة Aachener Weiher بألمانيا كمن يلقي بنقود الحظ.

حين اقتربت منها امرأة تستأذنها بالجلوس.. تحدثت الامرأتان بالعربية وصادف أنهما من نفس المدينة التي خرجتا منها مع من هجروا في الحرب.

بادرت المرأة القادمة بالحديث.

اسمي سارة وأنت؟

أجابتها نهال دون النظر إلى وجهها...

اسمي نهال..

أرى السآمة بادية على وجهك أنت أيضاً.

أجابت نهال وعيناها معلقتان بالبحيرة:

إنه القاسم المشترك بيننا كلاجئين ربما.

بدأت سارة بالحديث كأغلب اللاجئين الذين لا يمكنهم الاستمرار بالتعارف ان لم يتمكنوا من سرد قصصهم حين غادروا بلادهم.

حين خرجت أول مرة من منطقتي اضطررت ومعي الكثيرين للنوم في الحديقة.. جررت يومها ذيول خيباتي وقهري وأنا أمشي مع الجموع النازحة من بيوتها التي دمرت الطائرات والصواريخ أكثرها

كما تعلمين لم يكن لمعظمنا أمكنة يذهبون إليها فأغلبنا باع منازله في العاصمة ليشتري في الضواحي ويحتفظ بالباقي كي يستر به على ما تبقى من خواء أيام لا تحمل معها مبشرات تدعوك للعيش في بحبوحة.. هل كان ذلك أول تغيير ديموغرافي دون أن نشعر بذلك؟

لقد مزقت الحرب العائلات وشردتهم دونما رحمة.

لقد علمتنا الحرب رغم ألمها أن نكتشف حقائق غابت عنا حين كنا منشغلين بتأمين لقمة العيش!

نهال ما زالت صامتة تستمع دون أن يبدو على وجهها أية تعابير.

في بلدي كنت دوماً أريد الانفراد بذاتي هرباً من ضوضاء البيت وأولاد الجيران الذين لا يكفون في كثير من الأحيان عن طرق الباب لطلب رغيف خبز أو كأس من الزيت أو حتى مجموعة كراسي.. وأصرخ على إخوتي ليكفوا عن اللعب والصراخ.. أردت دوماً الهدوء وسط ذلك الضجيج.. وحين حصلت عليه منذ أن استقريت في هذه البلاد سكنني ضجيج يعج في داخلي أقوى من ذلك الضجيج.

تمزقنا وأصبحنا حديث العالم.. لكن بدون فائدة فقط مجرد أخبار على الفضائيات والإذاعات وعلى الألسنة وداخل العيون المشفقة والحاقدة معاً وغدر الصديق قبل العدو.

تكمل وقد راق لها أن تتحدث وتستفيض دون أن يقاطعها أحد.. وكأنها نسيت أنها توجه كلامها إلى نهال التي مازالت تنظر للبحيرة صامتة دون تعابير واضحة تتفاعل من خلالها مع حديث سارة.

عدلت من جلستها وبدت أكثر ارتياحاً من ذي قبل حين رأت أن نهال لا تبدي أي تذمر.. تابعت كلامها ساخرة بأسى:

كنت نائمة حين سمعت القذائف أول مرة اعتقدت بأنني أرى حلماً

مزعجاً.. استيقظت يومها على صوت أمي وهي تقول:

انهضي بسرعة وقبل أن تكمل كلامها قلت لها بأني رأيت في حلمي ألعاباً نارية كادت أن تحرق المنطقة.. جاوبتني يومها بسخرية لا تخلو من الغضب.. وهي تضع غطاء رأسها بيد وتجرني بيدها الأخرى.

لو كنت خارج المنزل وبقيت نائمة لحضرت عجوز المكنسة السحرية وأخذتك برحلة دون عودة.. ارتدي ثيابك بسرعة ففي الخارج بدأت حرب النجوم.

لكن جنية العصا أخذت أمي التي لم تحتمل النزوح إلى الحدائق وقد كانت سيدة ترفل بالعز ماتت في الحديقة التي أقمنا فيها قبل أن يطردوا البقية خارج البلد.

جئت إلى هنا منذ ثلاثة سنوات ونصف بعد رحلة قاسية مثلي مثل كثيرين سمح لنا البحر بالعبور برحلتنا فلربما كان متخماً باللذين ابتلعهم قبلنا أو ربما المافيات وقراصنة البحر كانوا يومها في إجازة.

بداية كل شيء أمر صعب كالولادة.. لكن سرعان ما تتأقلمين وتجنين ثمار تعبك وحلمك الذي يكبر أمامك كطفل جميل تكبر معه طموحاتك ومحاولاتك بالارتقاء للأفضل.. كنت خائفة جداً فالمجهول مخيف حتى لو كان علاقة جديدة أو زواجاً أو عملاً جديداً.. فما بالك ببلاد لا تعرفين عادات شعوبها وطباعهم ولغتهم ومناخهم السياسي والاجتماعي والجغرافي؟.. ونتيجة لذلك الخوف قررت أن أبذل جهودي مستغلة كل الفرص الممكنة أمامي للحصول على مكان أفضل من حيث الإمكانيات التي بمقدوري تقديمها.. لذلك وجدتني كلما انتهيت من شيء التقطت أنفاسي لأبدأ من جديد.. وقررت منذ مجيئي إلى هنا أن أخرج من العتمة إلى الضوء.

بدأت نهال بالاهتمام لسماعها ما دفع سارة بالاستفاضة أكثر.. وكأن العمل والدراسة منعوها من التكلم طيلة تلك السنين والآن حان الوقت.... ربما!

فـي الغربة يجـب عليك حسـم أمرك.. بين أن أكـون أو لا أكـون.. وعليك التعامـل مـع الأمـور بالمقابـل بطريقـة مرنـة تجعـل منـك وعـاء لتقبـل عاداتهـم وتقاليدهـم دون أن تنسـي ترسـيخ عاداتـك وعـدم رميهـا بحجـة أنـه انتهـى زمنهـا.. عليـك احترام قوانينهـم دون المـس بمـا يمليـه عليـك عقلك بقوانينك الخاصة التي لا يمكـن لهـا أن تلغـى حيـن تعيشـين تحـت رعاية دسـتور بلـد آخـر.

غشي صمت قبل أن توجه سارة سؤالاً لنهال.. قائلة..

هل تعلمين لماذا نجحت؟ وكيف هزمت خوفي وترددي؟

هناك أسباب كثيرة تختلف من شخص لآخر في الغربة حصراً.. أسباب تدفـع بـه للأعلـى حيـن يقرر عـدم الفرار مـن الظـروف مهمـا كانـت قاسـية ويتحداهـا.. وأسـباب تهبـط بـه للقـاع حيـن يختـار الهـروب بتجنبـه للعمـل مهما بدا سـهلاً عليه. وأسبابي مختلفة فقد كان جرحـي طازجاً وساخناً لمـا يبـرد بعـد.. لذلـك أردت معالجتـه كمـا يعالجـون الحديـد بالنـار ليصبـح طيعاً.. فحيـن يصيـر صلبـاً لـن يعـود بإمكانـك عمـل شـيء لـه.

بعـد حصولـي علـى الإقامـة قدمـت طلبـاً للانتقـال لمنـزل أسـتقل بـه.. أربـع شـهور قضيتهـم فـي الكامـب رأيـت بهـم العجـب..

النجاح لا ينمو من فراغ ومـع الأسـف أكثر الذين لجأوا كانوا معتقدين بـأن أوروبـا كهفـاً مليئـاً بالكنـوز تمنحهـم مـا يحلمـون بـه بجملـة: جئناكـم لاجئين وعليكم التصرف.. أوروبا ليست عميلاً سرياً لفشلكم وتقاعسكم فـي البحـث عـن كل جديـد.. لقـد تعامـل السـوريون مـع أوروبـا علـى أنهـا حلـم ديموقراطـي لطالمـا تمنـوا تحقيقـه فـي بـلاد لـم تتعامـل مـع الفـرد علـى أنه مواطـن لـه كيـان يُحتـرم وإنسـانية تُقـدس.. ولـم يضطـر للوقـوف فـي الطوابيـر بانتظـار دوره للحصـول علـى الخبـز أو لإجـراء معاملـة فـي دائـرة حكوميـة لا تمـر دون دفـع رشـوة.. أو مشـاجرات لدفـع فاتـورة الكهربـاء ليلحـق بالموظـف الـذي يهـرب قبـل انتهـاء دوامـه الرسـمي.

أخطأ السـوري اللاجـئ حين اعتقد بأن الأوربيين سيتعاملون معه على

أساس عاطفي بحت يمكن له أن يمرر من خلال تلك العاطفة كسله واتكاله على الغير دون النظر إلى الأوروبي الذي تأخذ منه حكوماته ضريبة بقدر ما تمنحه من رفاهية معتقدين أنه حصل عليها بالمجان؟

الفرد الأوروبي يكدح ويتعب ليستطيع الحصول على الرعاية والأمان والتأمين الصحي.. لكن ماذا فعل السوري في بلاده التي هرب منها لأنه لم يتجرأ على قول كلمة لا.. اللا التي تمنع أذى الآخرين عن كسر مصابيح الشارع وتخريب مقاعد وسائل النقل واللا التي لم يتجرأعلى قولها حتى داخل المراكز الصحية التي يخرج منها مريضاً بدلاً من أن يتعافى.. واللا التي تمنع رمي أكياس القمامة من نوافذ البيوت إلى الشارع.. أوروبا طوق نجاة مع من يحسن استخدام طاقاته لكن أكثر اللاجئين يريدون كل شيء جاهز دونما تعب..

أوروبا ليست كما تصورناها بلاداً تنتمي لفئة تدافع بها عن المعذبين في الأرض.. فهي تأخذ من مواطنيها مثلما تعطيهم.. لكن ماذا تفعل أوروبا ومثلها لأناس كانوا يعيشون في بلادهم على «الفتات» شاكرين نعمة الله والحكومة عليهم وحين خرجوا من بلادهم بدأوا بالتمرد والعصيان وأحياناً بالشتائم لدول لم تمنحهم ما يريدونه دون أن يقدموا من طرفهم بل رافضين للعمل والإنتاج..

كيف يمكن لأوروبا أن تعاملهم وتنظر إليهم بغير نظرتها لخدم.. هنا الوضع مختلف، فلربما غاب عن بالهم أنهم في بلادهم مفتوح باب الرشوة على مصراعيه ليتفادوا ما يفعلونه أياً كان الذنب.. لكن هنا سيقومون على إهانتهم أكثر وسيظهر حقدهم الدفين عليهم كمسلمين ومن سيظهر هذا الحقد هم اللاجئين أنفسهم وسيقررون في بلاد اللجوء بأن نظامهم كان معه كل الحق حين تعامل معهم بالطريقة التي مارسها عليهم.

الأوربيون يحسنون التصرف حين يحسن اللاجئ معاملته لنفسه.. حين يحترم القوانين.. حين يعمل ويجتهد بدلاً من أن يكون عالة في مجتمع يحترم اليد العاملة لا اليد العاطلة.. تذكروا أن أوروبا لن تكون شريكة

لكم في البؤس.

عدم القلق يعني عدم الاكتراث.. ونحن لم نكترث كثيراً للظروف السيئة التي أحاطتنا.. دوماً حلولنا جاهزة فبدلاً من الاستنكار على ارتفاع سعر فاتورة الكهرباء كنا نقوم بسرقتها بمد أسلاك من أعمدة الشارع لداخل بيوتنا.. وبدلاً من الشكوى على موظف متقاعس كنا نقوم بدور الراشي لننهي أمورنا.. لقد ساهمنا بشكل كبيرفي خراب بلدنا وفي هذا المناخ استطاعوا زرع بذور فسادهم حين رأوا فينا تربة صالحة لذلك.

جف حلقي وأنا أتكلم.. نهال؟ ماهو عملك؟

عاهرة...

حملقت سارة في وجه نهال واندفعت إلى الوراء دون وعي منها.

ما بك اندهشت وتراجعت للخلف وكأنني جذام؟

هل أحكي لك قصتي أم أنك تريدين الهروب قبل أن يراك أحد تعرفينه جالسة مع عاهرة.

تكلمي.. قالتها سارة وهي تتنهد.

انتزعت نهال عينيها من البحيرة لتلقيهم بعيني سارة.

هربت مع زوجي ووحيدنا البالغ من العمر عاماً ونصف قبل أربع سنوات إلى لبنان ومكثنا في المخيم قرابة ثلاثة أشهر قرر خلالهم زوجي الهرب إلى هنا في ألمانيا لاستحالة العيش في مخيم يفتقر لكل الشروط الإنسانية.. لا أخفيك بأني فرحت لقراره وأخذت أفكر كيف ستكون حياتنا في أوروبا، وكيف سيكبر ابني في مناخ صحي ونفسي سليم بعيداً عن قرف المخيمات التي ترفض حتى الكلاب العيش فيها.. لكنه فضل السفر بمفرده كي يجنبنا الموت في البحر ووعدني في حين وصوله سالماً وبمجرد حصوله على الإقامة سيعمل على إجراءات لم الشمل.

عامان من الانتظار في المخيم المخزي.. عامان من الانتظار المضني..

لا معيل لا مال لا عمل لا أمان.. فقط انتظار لما لا أدريه.. عزلت نفسي عن المحيط حولي والوقت طفل مذعور في زاوية ينتظر فيها قدوم أمه.. الرسائل النصية من زوجي وجباتي المفضلة أتناولها في قحط أيامي.. وابتسمت ساخرة تقول..

رسائله كانت في معظمها تحمل أذكار الصباح والمساء وتشدد على عقوبة تارك الصلاة والغضب الإلهي من خروج المرأة من بيتها دون إذن زوجها.. ربما نسي أني في مخيم وبأني أضطر للخروج حين يدلف السقف فوقنا من ماء المطر.. باختصار تحولت من امرأة إلى حالة من القلق أنتظر منه إرسال المال مع تلك النصائح.. وكان جوابه كلما طلبت منه المال بأنه لم يعثر على عمل وريثما يحصل على عمل علي التقيد بتلك النصائح حتى أني شعرت لكثرة الأحاديث النبوية التي يرسلها بأن السماء تمطر ذهباً وفضة.

الحاجة والعوز دفعاني لعمل أشياء كنت فيما مضى أشمئز ممن يمارسونها.. لكن الظروف القاسية تجرالمرء غصباً عنه لأنفاق لا يعلم إلى أين ستودي به.. رغم كل الوجع والألم والفقر لم أرض يوماً بخيانة زوجي أو الخروج مع رجل غريب رغم كل المغريات ورغم أن الأمر كان سهلاً جداً في المخيمات وأغلب النساء كن يخرجن مع رجال غرباء بعلم أزواجهن.. أما أنا فقد اخترت النصب والاحتيال من خلال صفحتي على الفيسبوك التي لا يعلم بها زوجي.. ومع أنه لا يعلم لكني قمت بحظره وحظر عدد من أصدقائه أعرفهم ويعرفوني.. تحسباً لأي طارئ.

استطردت نهال قائلة..

هناك أمكنة صنعنا فيها تفاصيل حياتنا من خلف شاشة زرقاء لا يهمنا كثيراً معرفة أسماء أصحابها أو صورهم الحقيقية.. موفرين علينا فضول السؤال.. لم يكن يهمني في ذلك العالم الافتراضي حقيقة الأشخاص عن كثب طالما أني اخترت قوتاً من كلمات تحميني من صقيع أيام ترتجف بها شرايين نبض نازف لا يوقفه إلا دردشات ورسائل نصية..

لم يكلفني مشروع الصفحة أكثر من تحميل صورة فتاة جميلة واسم

وهمي وبعض الآيات القرآنية وأذكار الصباح والمساء التي كان يرسلها لي زوجي.!! مشكور لقد وفر علي عناء البحث.

عالم الرجال عالم غريب.. فبقدر ما يظهرون متزنين حتى تكتشفين لاحقاً شخصياتهم الأخرى.. إنهم عالم من التناقض.. عالم من الغباء لكنه غباء مفيد حين لا تكوني واحدة من زوجاتهم.. فالعشيقة تكسب بالحصول منهم على المال أكثر من الزوجة.. لأنها تحمل دوماً ورقة ضغط وتهديد قادرة، على إشهارها في وجوههم حين يحاولون التملص دون دفع المطلوب إن حاول أحدهم المضي في دربه..

بداية كل أمر صعب.. ونعلن بغرور أمام أنفسنا بأننا قادرين على مواجهة الصعاب وتحمل المشقات غير مدركين حجم الألم الذي ينتظرنا على أرض الواقع حين يئن أطفالنا أمامنا جوعاً وبرداً وتعباً دون أن نملك لهم شيئاً.. ووقوفنا عاجزين يعني أن نتحمل تبعية كل ما هوسيء يمكن حصوله.. الموت أمر وارد وحصلت حالات كثيرة مات فيها أطفال نتيجة نقص الدواء والغذاء ماتوا نتيجة البرد والصقيع .. مات أطفال كثر نتيجة موت المنظمات الإنسانية والمشافي التي تعتذر عن استقبال اللاجئين بحجة أنهم لا يملكون بطاقة مخصصة تؤهل الأطباء لاستقبالهم.. ولا أعلم كيف يرفضون مريض سيموت لعدم استكمال أوراقه وهم مفتقدين للبطاقة الإنسانية أصلاً.

وخز الضمير قنفذ تنغرز إبره داخل طمأنينتك كلما ارتفعت درجة حرارة طفلك أو حين يطلب طعاماً أنت غير قادرة على صنعه لعدم توفر الإمكانيات أو حلمه بالحصول على لعبة لطالما أجلتها بحجة أن هناك أمور أهم.. ما عدا شعورك أمام نفسك بالضعف والمهانة والتقصير نتيجة العجز.

كل تلك الأمور جعلت مني مجموعة من الخيوط المتشابكة لا أعلم من أين أبدأ بفك عقدها.. وأنا امرأة شبه أمية ولا عمل لدي ولا حرفة أمتهنها كي تكون أماناً لي من الفقر.. ربما كان بإمكاننا كلاجئين أن

نعمل أشياء مهمة.. فذات مرة اقترحت على المسؤول عن المخيم أن يقدم لنا أي عمل يمكن لنا الاستفادة منه أو أن تقوم إحدى اللاجئات الماهرات بمهن حرفية بتعليمنا.. فأي احتراف لأية حرفة لا يتطلب تعليمه أكثر من شهر ثم تأتي المرحلة التي تليها وهي مرحلة الممارسة والإبداع والإتقان.. والمرحلة الأخيرة هي البحث عن تجار محليين نعرض عليهم أعمالنا لتصريف بضاعتنا في السوق.. وتفاجأت بأن تلك اللاجئة رفضت المشروع إلا بمبالغ مالية رغم معرفتها مسبقاً أننا لا نحصل إلا على الطعام وبعض الألبسة والدواء الذين تتم سرقة معظمهم من مسؤولي الإغاثة.

تحصنت بكل الدروع الواقية لصد أي هجوم علي من رجال اكتشفت بأنهم لا يعنيهم جوعي بقدر جوعهم لجسد امرأة.. ولا يعنيهم وجعي بقدر استمتاعهم بصراخي ألماً.. ونجوت وانعزلت حين باءت جميع محاولاتي بالفشل في البحث عمن يساعدني أنا وطفلي من أبناء جلدتي الذين تحولوا لقطط برية تنبش مخالبها في وجهي كلما حاولت الاقتراب من أطباق طعامهم.

سئمت وأنا أدور في فلك الانتظار.. انتظار مساعدات لا تأتي إلا بعد أن تكوني قد سئمتها هي الأخرى وسئمت عيشك وأنت محاصرة بأياد تختار مساعدتنا بحسب توقيت ساعة مزاجها.. وبحسب توقيت كاميرات التصوير المخصصة لعرض تلك الصور على الشاشات دون احترام للمشاعر ولبعض كرامة كانت تتسرب منا عرق ذل وقهر حين أخرجونا من بلادنا

سئمت الانتظار للمسة حانية من زوج أرمي برأسي فوق صدره وأبكي دهوراً دون أن يزجرني أو يدفعني عنه.. سئمت نشرات الأخبار الكاذبة التي لا تأتي إلا بصور الأشلاء والأطفال الممزقين جوعاً وقهراً.. سئمت سماع أخبار انتصاراتنا الوهمية دون أن يعي أكثرنا بأن مايحصل في بلدنا ما هو إلا إعدادات لمهمة أوكلوا بها أشخاص معنيين وعليهم تنفيذ الأوامر.. أوامر ربما لن تنتهي لمئتي عام قادمين.. أنا شبه أمية لكن

الحرب قادرة على جعلك تكتشفين أشياء لم تكوني يوماً حتى لتؤمني بها.. أشياء كانت مخفية عنا وحين ظهرت لم نستطع عمل شيء لها سوى الاستسلام لواقع مرير نرزح تحت وطأة صعوبة مناخه بخوف أكثر من خوفنا فيما مضى.

في زحمة ذلك كله لم أعد بل لم يعد يعنيني أي شيئ سوى طفلي والاعتناء به ففترة نموه خلال تلك السنة باتت أشبه بفترة نمو طفل يعاني من مجاعة في الطرف الآخر من العالم.

ترددت كثيراً قبل دخول العالم الأزرق الوهمي كما يسمونه.. كنت خجلة جداً من نفسي لما أفعله لكن كان لا بد من عمل شيء ولم يكن صديقاً لي سوى شقائي الذي استعنت به على كسر حاجز خجلي وخوفي وبدأت أقلب مطولاً في الصفحات وأختار ما يناسبني منها.

تلك الشاشة كشفت عن قبح الكثيرين الذين يجملون كلامهم بمساحيق تجميل لا تلبث أن تسيح عنها حين نتعارف أكثر.. وعرفت أشخاصاً لهم وزنهم السياسي والديني ولو نشرت ماكانوا يقولونه لفقدوا الآلاف من متابعيهم..

كنت سعيدة بكذبي وخبثي أمام رجال لا يكفون عن نشر أكاذيب يصدقها متابعون طيبون ببلاهة وغباء.. وكنت أنتشي سعادة أيضاً حين يستحلفوني بأن أحذف محادثاتهم وصورهم بأوضاع مخزية.. أضحكني ألماً وسخرية قادة يجهلون خارطة الوطن العربي محاولين التعويض عنها بانتصاراتهم الفحولية على خارطة أجساد نساء شهد معظمهن هزائم ممهورة بعجز رجال متجاهلين جملة تقول... انتهى مفعول الصلاحية لا تحاولوا مجدداً.

مع مرور الوقت أصبحت أكثر جرأة فالمال الذي جمعته جعلني أكثر قوة ولم تعد نبرة كلامي ذليلة كالسابق.. وكأن المال يجعلك تملكين قوة تدفعك لتقولي ما عجزت عن قوله وأنت مفلسة وقواك خائرة من كل أنواع الجوع.

تغير المشهد حين لاحظ المقربون مني في المخيم التغييرات الحاصلة مصدقين ما قلته لهم بأن أقارب لي في بلدي هم من يرسلون لي المال.. وظهرت أمامي الماهرة الحرفية التي كنت أستجديها لتعلمني حرفتها ورفضت.. حضرت لتعرض علي جهودها بتعليمي وإقامة المشروع الذي عرضته عليها فيما مضى لكني رفضت عرضها المتأخر بعد عام من طرحي المشروع ولم يكن ليأتي لو لم أكن أملك المال!!!!

هكذا نتعامل في بلاد اللجوء نحن السوريون.. فبدلاً من أن نتكاتف لنرمم جراحنا رأيتنا نتسابق لنكئ جروح بعضنا البعض بسكين اللؤم والغطرسة والحسد والمصالح.

تعبت وأنا ألملم أشلائي النفسية بعد كل محادثة أتسول فيها المال بصعوبة كصعوبة خروج الروح من الجسد.. تعبت وتمزقت روحي حين كنت أرى عيني طفلي تتسولان وجبة طعام على واجهات المطاعم في المدينة دون أن أملك ثمنها.. تعبت وأنا أجره من يده لأتابع نزفي على أرصفة الغربة واللجوء والعيون تخمش إنسانيتي بمخالب نظرات احتقارهم واشمئزازهم لي كلاجئة.

في البداية حملت معي هموم وطني بدلاً من حقائبي.. وحين أنام توقظني قنافذ القلق المحشوة بفراشي لأتابع نشرات الأخبار والانتصارات الكاذبة.. وأفرح لكل خبر تحرير ينقله ناشط أكتشف فيما بعد أنه ناشط مأجور.. تخيلت أننا بعد نزوحنا سنتشارك كأبناء وطن القهر نفسه والجرح ذاته والنزف.. واكتشفت أننا بارعون في تصويب فوهات بنادق خياناتنا وتجريحنا وكرهنا لبعضنا البعض.. وأدركت أننا مفرزات خبيثة أنتجت فرعون معتقدين أننا سنحوله إلى موسى بتلك السهولة.

حاولت جاهدة إسكات صراخ عقلي الناقم على مجتمعي وبيئتي الذين لم يسمحوا لنا إلا بالدوران في فلك العريس والزواج وتحويلنا لآلات تفريخ داخل مؤسسة زواج تستهلك ما تنتجين دون تعويضك بما قدمته من تعب.. وحين تحاولين الاستنكار يقفون في وجهك

ليتهموك كذباً بأن أغلب ما قدمته من بضاعة كانت فاسدة.. وإن سألتهم.. ولماذا خرستم عن ذلك إن كان فعلاً حقيقة.. فإنك لن تسمعي إلا جواباً ممزوجاً بابتسامة خبيثة وبصوت يفح في أذنك.. لأن النبي أوصانا... رفقاً بالقوارير.

وللأسف عرفت متأخرة بأن الزواج مؤسسة اجتماعية تريد التخلص من الفتاة ومن مسؤوليتها أكثر من فرحهم بها لدخولها عالماً جديداً.. وبأن الزواج الذي ينصح المرأة فقط بالاهتمام بالزوج والصبر عليه ومداراة ظروفه وإسعاده في الفراش.. هو في الواقع إلغاء لشخصيتها وإهمال لإنسانيتها حين تتحول من امرأة تملك العقل إلى مجرد دمية في صالات العرض.. ورضى زوجها عنها يعني رضى الرب.. وغضبه يعني أن جهنم الآخرة بانتظارها تدخلها من غير حساب.. كانوا متوهمين فيما مضى بأن المرأة في بلدي امرأة قنوعة تخيط الجرح بإبرة الصبر حين يداهمها الحزن بفقدان شعورها بالأمان أو صمتها عن خيانة زوج أو سكوتها لأنها غير قادرة على إعالة نفسها مادياً إلا من خلال الزوج.

أنواع شتى من العنف مورست عليها سواء أكان عنفاً جسدياً أو نفسياً من قبل رجل من المفروض أن يكون مرفأ أمان يتناغم معه إحساس يدغدغ مشاعرها بكلمة حانية أو هدية معبرة أو عناق دون أن تكون الغاية من ورائه دعوة للسرير.. كمموا فمها وهددوها بالذبح بسكاكين ألسنة الناس إن حاولت أن تطلب الطلاق.. لكنهم وافقوا بأن تذبح بسكاكين الطلاق النفسي في بيت يضمها مع رجل يرفضها لأنها لم تعد تروق له هكذا بكل بساطة.. غير آبهين بأنها (بايرة) في منزله.. توهموا بأنها راضية بكل ما يحدث لها بود وإيمان من باب أنه نصيبها وأن هذا قضاؤها وقدرها.. ممنوع عليها الشكوى خوفاً من شماتة الأقارب.. ممنوع عليها مصارحة الزوج بما تفعله عائلته معها من ظلم وحين لا تسحب الشكوى فستطرد من سرير جنته لشهر أو شهرين بحسب مزاجه.. ممنوع عليها أخذ نصيحة جارتها إلا بالسر.. فالنصيحة تعني أنها فتحت صندوق أسرارها المخبأ بداخله وصايا

تحرمها من ميراث الرضى حين تكشف حجبه للغريب.. وفتحه يعني أن العائلة ستتمرغ بوحل سوء السمعة.. وكأن حياتنا جبلت على مرضاة الآخرين فقط.. وكي نستمر فعلينا الاستمرار بالكذب على أننا سعداء وأن نكون مهرة بوضع مساحيق التجميل المصنوعة بألوان صاخبة من الرياء والمجاملات والكلمات المنمقة بما يتناسب مع مستوى كل عائلة.. لكن غاب عن بالهم إلقاء نظرة لبراكين الغضب التي استولت على داخل المرأة منتهزة أية فرصة لإخراج فورانها ونيرانها عندما يحين الوقت لذلك.. والوقت أزف مكانه في أوربا عند هجرة الغالبية إلى هناك.. عداك عن إخراج الفتاة من المدرسة وإلحاقها بعمل منتظرة عريس الغفلة... على غفلة.

ران سكون فظيع.. وكأن الحديقة قد توقفت فيها الحياة لثواني.. قبل أن تكمل كلامها المشوب بالحزن.. قائلة:

كنت بريئة وكنت أسمع عن ألاعيب النساء لكني لم أمارس أياً منها ربما لأنني لا أملك الدهاء ذاته الذي تملكه بعض النساء.. فأنا من نوع النساء اللاتي لا يخفين شيئاً عن أزواجهن وأتعامل مع مشاعري بحسب مناخي النفسي دون مواربة لكن كان لا بد لي من حفظ وصايا أملوها علينا إذ لا خيار آخر لنا فالرجل كما علمونا وكما عشناه هو الفلك الوحيد الذي يجب عليك الدوران حوله..

وحين تعصين الأوامر فالأمر سينتهي بك بانفجار لغم الطلاق الذي سيحولك لشظايا تتناثر بها أشلاء سمعتك في بيوت الجيران وعلى ألسنة الأقارب والصديقات اللاتي يخفين رجالهن عنك خوفاً عليهم منك كمطلقة.. لذلك تجدين معظم النساء المقهورات قد قبلن بالأمر الواقع مستنجدات بالصبر ريثما تنتهي مهمتهن من الحياة.. الوصايا تقول..

إن غاب زوجك ابحثي عنه.. وإن حضر لا تعاتبيه.

ارتدي دوماً أمامه قناع الفرح.. فحزنك مندرج تحت اسم نكد لا تعب.

لا تظهري حبك دفعة واحدة فيسأم منك.. ولا تجافيه كثيراً فينساك.

برري له ما ارتكب من أخطاء وما سيرتكب.. لنجاة مركب أسرتك من الغرق.

إن أراد إعلان حرب دعيه ينتصر.. فالحرب جولات والرابح هو من ينتصر في الجولة الأخيرة.

اكذبي.. فبالكذب خلاصك.. وإن استطعت ارتدي كل يوم قناعاً جديداً.. فالكذب ملح الرجال وخلاصك.

علمونا بأن الرجل هو الفلك الوحيد الذي يجب عليك الدوران حوله وانا لم أعرف الرجل الا من خلال أبي وأخي والرجال المحيطين ببيئتنا..

وحين تعصين الأوامر فالأمر سينتهي بك بانفجار لغم الطلاق الذي سيحولك لشظايا تتناثر بها أشلاء سمعتك في بيوت الجيران وعلى ألسنة الأقارب والصديقات اللاتي يخفين رجالهن عنك خوفاً عليهم منك كمطلقة.. لذلك تجدين معظم النساء المقهورات قد قبلن بالأمر الواقع مستنجدات بالصبر ريثما تنتهي مهمتهن من الحياة.

للأسف هناك نساء كن سعيدات بأدوارهن الموزعة عليهن كسيدات في بيوتهن.. سعيدات بالقدر الذي تستطيع المحنكة منهن إلغاء عقلها.

كيف؟ وهل هناك امرأة ذكية ومحنكة قادرة على إلغاء عقلها؟ تسألها سارة باندهاش..

نعم.. الذكية هي من تكسب رضى الزوج دون أن تتجاوز حدودها المرسومة بين السرير والمطبخ.. وهي من تحيك المؤامرات لكسب قلبه ورضاه وإبعاده قدر الإمكان عن أمه وأخواته وأقاربه وحتى أصدقائه.. وهي المهرج بعد أن يأخذ قيلولته.. والراقصة في ليلة الخميس.. كل هذا يندرج تحت إلغاء عقلها وتسخيره لما يصب في مصلحة الرجل وإسعاده فقط لكسب قلبه وجيوبه.. ومثل هذه المرأة ترمى دوماً بحجارة الحسد متوهمين أن زوجها

رجل من صنف الملائكة غير مدركين أن وظيفتها أصعب ألف مرة من امرأة حرة لا تقبل بالمساومة على عواطفها من أجل إرضاء الآخرين.. ومثل هذه المرأة تنتهي مهمتها حين تتجاوز عمر معين لن تستطيع من خلاله التحول في سرير الزوج لسمكة طازجة خرجت للتو من البحر.. ولن يساعدها خصرها على الهز.. وستتبع حمية نتيجة لتراكم الشحوم التي كانت تقبل عليها بشهية فيما مضى لإرضاء رب الأسرة الذي يحب الطعام الدسم.. ومكافأتها في نهاية الخدمة؟ واعتزال الرقص؟ وجفاف الخصوبة؟ إما زوجة ثانية يتخذها الزوج أو اختيار عشيقة سرية له بعيدة عن متناول ألسن المقربين وأولهم أولاده.. ليبقى محترماً بنظرهم.. مثل هؤلاء نشأوا في مجتمع فطرته شاذة.. وهكذا مجتمع لن ينتج الطهارة وكل ما يمثلونه من طهارة هو عبارة عن عسل مسموم يغرقون فيه دون وعي منهم بتصحيح المسار بدلاً من السير على حبال ستوقعهم في أودية عواقبها غير محمودة.. فلطالما مضغنا المر في وطن يرتدي الحجاب في خارجه ويتلبسه العهر في داخله.. وأول ما فعلته حين جئت إلى هنا هو بصق ذلك العلقم على قارعة أرصفة هذا البلد وإنقاذ نفسي واختيار طريقتي في الحرية ومن جميع القيود التي قيدتني في ذلك العالم المسمى وطن وعادات ودين.

تتنهد ابتهال عميقاً وتكمل حديثها بنبرة هادئة حزينة ممزوجة بالكراهية.

عامان من القلق والاضطراب تلقفني فيهم الخوف وبعثرني أشلاء داخل نظرات المارة وفي مقابلات الإعلاميين الباحثين عن الشهرة على حسابنا كلاجئين.. عامان حاولت فيهم رتق جروح لأشياء فعلتها ولم أكن مؤمنة بها.. عامان وأنا أحارب عقارب الوقت بسيوف الانتظار التي نالت من جسد أيامي ومن طعنات مقربين ومن خناجر نشرات أخبار ومظاهرات تدعو لطردنا.. عامان وأنا متكومة في زاويتي أحتضن

طفلي ساكبة في أذنه قصصاً للأطفال كي أخرس أصوات الحقد والشتائم الآتية من خارج الخيام.

عامان وأسنان اضطرابي تقضم بأظافرها خجلي ووجعي وذعري بانتظار أي قرار دولي يختارونه على طاولة مفاوضات يتجشؤون فوقها ملفاتنا بعدما ابتلعونا كوجبات دسمة تقدم في مناخ سياسي كاذب بعد جوع تاريخي مزمن تروح أعراضه وتجيئ بحسب حالة طقس مزاجيتهم وما تمليه عليهم حكوماتهم.

مضى العامان وجاء الخبر والذي من المفروض أن يكون خبراً سعيداً.. لكنه لم يكن كذلك فالعيش على الأمل مدة طويلة يفقدك فرصة الاستمتاع به حين يتحقق.

لملمت أشلائي النفسية وعبأتهم في حقيبة سفري ورحلت أخيراً مخلفة ورائي ذكريات بشعة لن تغسل عن جسدها كل محيطات العالم وبحارها ومطاراتها وحل ماسكبوه فوقها.. مضيت للمطار وألقيت نظرة أخيرة حين نزلت من سيارة الأجرة.. نظرت للخلف باتجاه المدينة عاتبة وحزينة من بلاد حمّلتنا فوق أحمالنا هموماً كسرت ظهورنا وأخطاء ارتكبها غيرنا ما زالوا منتشين لآلامنا فرحين بموتنا مستمتعين بتساليهم بنا.

ومضيت للمرة الأخيرة متمسكة بآخر حلم راكضة به متوهمة أن زوجي سيتلقف همي وتعبي وصبري وانكساري.. لكني تفاجأت باستقباله الفاتر لي ولطفلنا أيضاً.. أوجدت له المبررات الكافية التي تعودنا عليها.. واسترجعت الوصايا الاجتماعية والأسرية التي كان مجتمعنا يمليها علينا فيما مضى.. بند من تلك الوصايا يقول..

لا تظهري حبك دفعة واحدة كي لا ينفر منك

أغلب بنود الوصايا رغم إجحافها بحقنا كنساء لكنها أنصفت باختيارها لحلول لا طائل من المجادلة بها.. فما الفائدة من معاتبتك لرجل لا يميز بين حزنك وبين قص الابتسامة ولصقها فوق شفتيك؟

مضى الأسبوع الأول دونما مشاكل تذكر.. تلاه الأسبوع الثاني الذي حاولت فيه جاهدة إخفاء حنقي وغيظي والتعامل بهدوء فقد فوجئت بأنه لا يعمل وإن وجد فرصة لعمل فترينه يختلق ألف عذر لتركه وكل ما يجنيه يصرفه في المراقص وبأن كل ما قاله لي برسائله كان في معظمه كذب.. فهو لم يؤجر بيت بل مازال في الكامب لعدم توفر المال وبأنه لم يتقن اللغة كما أكد لي في رسائله.. بل كل ماتعلمه عبارة عن جمل قليلة تفيده لأغراض معينة والكثير من الكلمات والجمل السوقية.. تعاملت مع الحاصل بصبر.. وطلبت منه أن نبدأ معاً من جديد.. فالبارحة ذهب إلى غير رجعة كما ذهبت أشياء كثيرة لن تعود.. طالبته بوضع يده بيدي لنعمل معاً بدلاً من القضاء على أحلامنا بسبب فشل تحقيق حلم عشناه بترميم وطن.. وطن لن يعود من خلال مناخات عالمية تختار مواقيت إعادته بتوقيت يتناسب مع انتهاء مصالحها.. والتباكي عليه سيجرنا لفشل جديد، لكن تكرار محاولاتنا بالحلم والعمل سيهزم أي فشل وسنحقق ما نصبو إليه مهما طالت المدة.. الحياة لن تمنحنا ما نريد بتلك السهولة التي تتصورها.. لكننا قادرين على إزالة الحواجز والعوائق حين نؤمن حقاً بما نريده بإيمان وصبر سيهزمان كل محاولة تحاول التسلل لمنعنا عن تحقيق أحلامنا.

ضع يدك بيدي لنحقق نصرنا على مستوى أسرتنا ولنستفيد من هزائمنا الماضية.. ما من أحد لم يهزم والهزيمة لا تعني خسارة كل شيء.. فالخسارة الوحيدة هي استسلامنا للفشل وجلد ذاتنا والتباكي على وطن كانت جدرانه منهارة أساساً حين غضينا الطرف عن السوس الذي تسلل ليأكل خشبه دون أن نفعل شيئاً.. نحن فشلنا بإعادة وطن فلا تدعنا نفشل ببناء وطن جديد أفراده أنا وأنت وأطفال سننجبهم ويكبروا في مناخ صحي بعيداً عن الضجيج والكره والمحسوبيات والمصالح.. مناخ نهيئه بحلم لطالما عجزنا عن تحقيقه بوطن باعوه بحجة الدفاع عنه.. وباعونا معه بحجة حمايتنا.

التفتت إلى سارة مجدداً تبتسم بحزن وبصوت متهدج تلعثم بالبكاء

الذي تحاول ابتلاعه بألم شعرت به في حلقها لرفضها البكاء.

كان يسخر من كل كلمة أتفوه بها.. رفضني بفراشه لأني لم أعد أروق له.. والحجة هي أني لا أملك ما تملكه الأوروبيات من جسد مشدود وطول قامة، وبأني أرفض استباحة كل شيء في السرير كما يفعلن.. ضحكت ساخرة وهي تعب من زجاجة الماء قائلة:

لو فعلت ذلك لحاسبني من أين تعلمت كل ذلك، ولرفضني لأني لا أليق به كزوجة محترمة.

كيف بمقدور امرأة مهما بلغت من الجمال والخفة والإبداع أن تمنح لذة لزوج لا يكف عن رؤية بطلات استعراض دون أن يعترف بأنهن مصنوعات من السيليكون.. كيف ستخرج تلك الزوجة بشهادة اعتراف منه على أنها مبهرة وعيناه المغمضتان تصوران لعقله نساء مسكوبات بقالب كالدمى، لا تشوه بطونهن تشققات جلد نتيجة الولادات المتكررة ولا ترهلات نتيجة التقدم بالسن، ولا تجاعيد تسببت بأكثرها هموم الأبناء ومستقبلهم وتدبير شؤون المنزل وإيصال الأطفال للمدارس في أكثر الأحيان، والسهر أثناء الامتحانات ما عدا القلب الذي يتحول غالب الأحيان لجبهات حرب في ساحات الأهل والعائلة والتقتير والتقشف حين ينقص منسوب العمل، أو تطرأ خسارة تجارية ما للزوج.. ومصاريف الجامعات وتأمينهم عندما يبلغون سن الزواج وأكثر من ذلك بكثير..

ورغم تلك الصراعات تجدين الزوجة تلهث وراء مرضاة زوجها طالبة منه إن كان ميسور الحال إجراء عمليات تجميل فالجواب جاهز..

لمن ستقومين بعمليات التجميل.. أولست راضياً عنك بكل حالاتك؟

والأهم من ذلك كله من سيقنع هكذا أزواج بأن النساء اللائي يحلمون بهن تلك حرفتهن وبأنهن لن يقبلن به كرجل فقير.. بل هل سيتجرأ على الاقتراب منهن دون إرسال أوراق شيكاته كرسول أمين...؟ وهل سينالون النتيجة المطلوبة التي حلموا بها؟ من سيقنع هكذا رجال بأن الواحدة منهن ليست على استعداد لتحمل

أية مسؤولية وبأنها بارعة بمقولة كل ما يحصل أنا لست مسؤولة عنه وواجب الرجل إحضار كل شيء دون أن تكلف نفسها حتى بتعب التفكير.. من سيقنع هكذا رجال بأن تلك النسوة لسن سوى ألواح من الثلج وبأن ممارسة الرجال للجنس معهن هي ممارسة تقوم بها صورهن المتحركة كما شاهدوهن على التلفاز وليست حقيقية كما يتصورونها في غرف نومهم.. والدليل هو طلاق معظمهن بعد فترة وجيزة.. لا تصدقي بأن الطلاق حصل نتيجة موت الشهوة..لا.. بل لتفاجئه بامرأة مختلفة عن تلك التي كان يشاهدها مع ملايين آخرين.. ووحده من أكل الطعم.

خمسة أشهر وأنا أحاول ترميم الصدع الذي تسبب بشقوق باتت واضحة في جدران علاقتنا نتيجة استهتاره وعودته مخموراً كل ليلة من المراقص عداك عن كلمات التجريح ورفضه لي غير آبه بما أعانيه.. وحدي.. كنت دوماً.... وحدي.. أتعامل مع عواطفي وحدي.. أتشارك مع حزني وحدي.. أنزوي وحدي.. أفكر وحدي.. أقوم بتربية طفلي وحدي.. ثم أجمع ما تبقى مني وأبكي.. أبكي بحرقة لاغتصابه فرحي وشوقي للقائه الذي انتظرته عامين.. لكن رغم وجع أيامي إلا أنني استطعت إتقان اللغة الألمانية وانتظرت حصولي على الإقامة متخذة قراري بتمزيق وصايا القبيلة وأخذ طفلي لنعيش بعيداً عن زوج لم تعد لدي الثقة بحمايته لنا.. زوج مستهتر دائم البحث عن حضن امرأة يرتمي فيه ليشكو بث حزنه وألمه على وطن خرج منه ويعلم أنه لن يعود.. غير مدرك أنها لا تفهم لغته ولا يهمها سقوط كل البلاد العربية طالما أن أبنائهم يدفعون لها من جيوبهم أو من جيوب المساعدات التي تأتيهم كل حين وآخر.

وها أنا حرة الآن.. تحررت من كل شيء.. تحررت من عباءة كنت أتعثر بذيلها كلما مشيت.. وغطاء رأس لم يكن الا ساتراً رملياً أحتمي خلفه وأصد به رصاص عيون الآخرين عني وكلامهم وفضولهم.. تحررت من زوج وغد، اكتشفت أنه جدار هش خارج

إطار بلده وبيئته.. رجل كمعظم الرجال الذين لا يميزون بين وجبة شهية وأخرى صحية.

تنهدت سارة حين انتهت نهال من حديثها.. ران صمت قبل أن تبدأ بحديثها لتقول.

كم تشبهين دمشق..

حدقت نهال بوجه سارة مندهشة غير مصدقة ما سمعته..

تشبهيني بدمشق؟ أنا أشبه دمشق؟

نعم تشبهين دمشق.. بتناقضاتها.. بعهرها وطهارتها.. دمشق التي أرادت استبدال قماشها الحريري بخيش مستورد وغاب عن ذهنها أن كل بلد ينتج أقمشته بما يتناسب مع طقس تلك البلاد وحين أصاب جلدها التقرحات خلعته وبحثت عن ثوبها القديم فلم تجده.. فتعرت.

وها أنت تقعين في الأفخاخ ذاتها وتستخدمين الأساليب ذاتها مع طفلك متوهمة أن كل ما يحصل أمامه سينساه مع الأيام.. أو ربما تأقلم معه.. وهذا التأقلم لن يعفيك من محاسبته حين تعبأ بديناميت لا أخلاقي ينفجر بوجهك في أية لحظة.. ذاكرة الطفل تخزن بملفاتها ما ستعجزين عن إنكاره مستقبلاً.. ولن يفيدك دفاعك عن نفسك مهما ذرفت مع كلامك من دموع.. وربما رحل عنك إلى غير رجعة كما يفعل الكثيرين من الشباب نتيجة أنانية أهل لم ينتج عنها إلا التفكك الأسري وشرذمة العائلة حين عجزوا عن حمل المسؤولية.. وتعودين وحيدة كساقية جف ماؤها تبكين ماضيك أمام مستقبل مجهول حين لم تحسمي أمرك كامرأة حارت بين الحفاظ على جذورها وبين التأقلم مع العالم الجديد.

قاطعتها نهال قائلة..

ولكني حسمت أمر ضعفي وعدت قوية بعد طلاقي من زوجي.. وأصبحت أكثر حرية

أجابتها سارة:

حين قمت بتطليق زوجك قمت بتطليق إنسانيتك وفضيلتك أيضاً.. ربما قويت بعد ضعف لكنك لم تنجِ من هلاك بعد حياة.

قالت نهال بلهجة لا تخلو من الاستهجان لكلام سارة.

وهل هناك حياة أفضل من أن نعيش كما يحلو لنا وكما حلمنا دوماً دون أن ينتقدنا أحد أو أن يمارس علينا سلطته وتوجيهاته وكأننا طلاب مدرسة داخلية؟

نظرت سارة إليها نظرات استفسار.. قائلة..

سأسألك سؤالاً بدوري بدلاً من الإجابة عن سؤالك.

هل الانتقال من فوضى إلى فوضى أكبر منها تسمينها حياة؟ هل الانتقال من غضب إلى تعب هو حياة...؟ هل الخروج من قليل من السلام إلى الكثير من النزاعات النفسية.. حياة؟

صمتت برهة قبل أن تجاوبها محاولة إخفاء اضطرابها.

وهل الحياة التي عشتُها مع ذلك الرجل تسمينها حياة؟ وتشبّهين ما أعيشه الآن هو الهلاك؟

بهدوء أجابتها سارة وهي تعدل من جلستها.

لقد ذكرت عيوب زوجك وأخطاءه.. لكن ما فعلته أنت أنك قمت بإنشاء أخطاء لا تليق بك كإنسانة وبدلاً من البحث عن حلول منطقية تساعدك على العيش وعلى تربية طفلك بطريقة صحيحة.. قمت بالاستعاضة عنها باستخفاف ذاتك واحتقارها.. فأصبحت الخادعة التي خُدعت.. والمخطئة التي أخطأ زوجها بحقها والكاذبة التي كذب عليها الزوج.

قالت نهال بنبرة غاضبة..

أية امرأة في مكاني ستفعل ما فعلته.

هل كنت لتقومين بما قمت به في أوروبا لو كنت في دمشق؟ هل كنت لتتجرأي على طلب الطلاق حتى لو فعل زوجك أكثر مما فعله هنا؟

صمتت قليلا ثم قالت..

لا.. لم أكن لأتجرأ

إذن فالقضية ليست قضية محيط أو بيئة أو مجتمع.. هي باختصار نفس بشرية وجدت لها المناخ المناسب لتمارس ما عجزت عن ممارسته داخل حدود مجتمعها.

تجيبها نهال بحدة لا تخلو من اهتمامها بالحديث أكثر من السابق

لكن المرأة في تلك الحدود التي تتحدثين عنها هي فعل ناقص.. جبانة.. متخاذلة مع نفسها على نفسها.. متواطئة مع مجتمع رسم حدوده لها دون أن تقدر على القفز فوقها، ولكن بقيت عيناها وجوارحها معلقين على السور.

مشاكلنا كبرت حين اقتنعنا أننا محدودون ضمن إطار مدينتنا المسيجة بحدود لم تسمح لنا بالخروج.. وافقنا ورضينا بها بكل أشكالها كما هي دون أن نجازف أو نغامر، أو أن نخلق أشياء تفرز من خلالها ثقافات جديدة وحلول لمسائل ومشاكل عالقة.. وما منعنا عن ذلك سوى ارتباكنا وخجلنا أمام تطورات يصنعها العالم حولنا.. دون أن نتجرأ على السؤال أو الاستفسار ففي داخلنا تعيش نزعة الأنا، وكأننا زجاج سيتحطم حين نعترف بقلة علومنا ومعرفتنا.. مع الأسف نحن نعيش في كوكب التشوف والغرور على لا شيء.. والطامة الكبرى أنهم وجدوا من فراغ.

تنظر إليها نهال مستفسرة عن سؤال يقول:

لكن ألا ترين أننا تخلصنا من القلق باختيارنا أوروبا.. واستطعنا تحرير أنفسنا من قيود لطالما أوجعتنا؟ أستغرب كيف عشنا ونحن مسكونات بالقلق.

تبتسم سارة قائلة:

مسكونات بالقلق معك حق.. لكن.. هل استطعن أولئك المسكونات بالقلق انتزاع اضطراب نفوسهن نتيجة ذلك القلق؟ ربما اختفى القلق لكن ما أنتجه من مفرزات شاذة لن تجعل منهن نساء يعشن بالسلام

الذي ينشدونه.

كيف؟

لقد بقين سجينات أحلام.. سجينات الاضطراب الناتج عن القلق لحين تحقيق أحلامهن.. بتن مقيدات بالتفكير.. ولا سعادة بقيد.. ولا حرية لإنسان حبيس أفكار مربوطة بحبال انتظار يجرها الاضطراب.. هل تغريد الطائر في قفصه هو ذاته تغريده في الغابات؟

في أوروبا القلق قاسم مشترك للأغلبية التي اختارت أوروبا دون سواها متصورين أنها بلد الحريات المفتوحة التي يمارسون من خلالها ما عجزوا عن ممارسته في بلادهم.. ولم ينظروا للاتجاهات الأخرى التي تمنحهم فرص الثقافات والتعليم والارتقاء بالعقول لما تحتاجه من فيتامينات القراءة والطموح والإبداع.. والأبواب مفتوحة لا تحتاج لإذن بالدخول.

دعينا نتحدث بصراحة دون أن يتحامل أحدنا على الآخر.

أنت مثلاً قمت بتخريب ما هدموه بداخلك بدلاً من ترميمه وإعادة بنائه.. كان بإمكانك عمل الكثير.. لكنك اخترت ما ظننت أنه سينقذك مما عانيته من كبت وتقصير إجتماعي مورس بحقك.. الوحل الذي أغرقت نفسك به لن تمحيه تمتمات وحمام ساخن وصابون معطر.

لكني أصبحت حرة.. وخلعت ثوب الدين الذي أماتني وأدخلني إلى جهنم الدنيا دون العيش في نعيم جناتها.. نعم ها أنا حرة من كل شيء.. كل شيء.

ماذا أضافت الحرية التي اخترتها لإنسانيتك.. ما التصحيحات التي فعلتها لمحو آثار القهر في ذاتك..؟ ماذا خبأت من مؤن لأيام قحط قادمة لا محالة للإقامة في أرض جمالك، ولأنوثة ستتوقف آلات الرجال عن حرثها في فصل معين..؟

صمتت سارة وقد سحبت قدميها بيديها كحلزونة اختبأت داخل

قوقعتها وكأن ما سمعته لم يكن في الحسبان.

تابعت نهال كلامها وقد شعرت بعقل سارة يعمل على غير هوادة.

الحرية ليست حرية جسد وإشباع رغبات فقط.. وإلا أصبحت عبدة لرغباتك والعبد لرغباته لن يكون حراً ذات يوم.. فقد قمت بإلغاء نفسك بنفسك حين وضعتها في زجاجة وما أنت حينئذ سوى امرأة معلقة في عنقها..

عشت الموروثات التي قيدتك كأنثى.. عشت قهر مجتمعك وظلمه.. ماذا فعلت حين جئت لأوروبا؟ هل تخلصت منهم؟ هل جاهدت لعمل الأفضل؟ أم أنك انتقمت منهم فيك أنت؟

كان يجب علينا حين نغادر أن نحمل بداخلنا كل مايخص الوطن الذي خرجنا منه.. محملين بذكرياته وأوجاعه وجذوره وعاداته وتقاليده التي تمرد معظمنا عليها نتيجة أخطاء اجتماعية ودينية وسياسية.. والبحث عن المال بشتى الطرق حتى لو كانت طرقاً غير مشروعة.. الفقر ليس في قلة المال.. بل بفقر الدين الحقيقي والمعتدل لا الدين الذين شوهه أشخاص منهم الدين براء.. الدين ليس تقبيل يد الشيخ وعدم مناقشته.. الدين هو قول الله «وإنما أنت مذكر، ولست عليهم بمسيطر».. الدين هو الاطمئنان والتناغم والرحمة.. وليس ذقوناً يعبث بداخلها ألف ثعبان وشيطان.. الدين هو التحرر من العبودية وأولها عبودية الرغبات.. الدين وقار لشخصيتك حين يصدح من روحك صوت الإنسانية واحترام الآخرين والعدل ومشاركة الآخرين معاناتهم.

فالحياة بكل تعقيداتها تصبح سهلة حين نعرف كيف نصنع عملية اللا اختلاف، من خلال التساوي فيما بيننا بالإحساس بالألم، وتقاسم رغيف الحنان حين تنفذ مؤننا.. بدلاً من إعلان سقوطنا في هاوية لن نخرج منها سالمين فيما بعد، وإن كان لا بد من السقوط، فلنسقط أنانيتنا وهذا أقدس أنواع السقوط.

ومن يقنع الغرب ويفسر له ما تفسرينه الآن وقد أصبح الإسلام

بنظرهم ونظرنا أيضاً سيف وذبح وقطع رؤوس وترهيب؟

فلنقنع أنفسنا أولاً كمسلمين بأن الإسلام ليس كذلك وستسهل مهمتنا حينئذ بإقناع الغرب.. ويجب علينا إقناع أنفسنا أيضاً بأن الغرب غير بريء من قطع الرؤوس وسفك الدماء وتاريخهم ومتاحفهم خير شاهد

تنهدت نهال قائلة بحزن..

لست وحدك من ابتعد عن واجباته الدينية فقد سبقك كثيرون.. ولذلك ضاعت اتجاهاتهم بين ما يريدون وبين ما يمكنهم الحصول عليه دون أن يخسروا أنفسهم.. وسبب ضياعهم هو ضياع الدين الذي لم تكن جذوره متأصلة فيهم بشكل متين.. ربما كانت الأسباب بأنهم تعلموه بطريقة خاطئة.. ولم يتلقوا من تعاليمه إلا الترهيب دون الترغيب.. وربما ذكرت أمامهم جهنم أكثر مما ذكرت الجنة.. وربما الشيوخ الذين جعلوا من أنفسهم آلهة لا يتجرأ أحد على المساس بها أو مناقشتها فيما يجهلونه.. فحتى الشيوخ لا يملك معظمهم الإجابات المنطقية على تفاسير معقدة لأنهم هم أنفسهم تلقوا التعاليم برؤوس مطأطأة وعدم الجرأة على السؤال.

ألا تلاحظين معي يا سارة أن نسبة كبيرة جداً من الأوربيين يحترمون القوانين أكثر من احترامهم لمبادئ الدين؟

لاحظت ذلك.. قالتها سارة بنبرة لا تخلو من الدهشة.. ولكن ما السبب؟

هناك أسباب عدة منها عدم وثوقهم برجال الدين المسيحي كما نحن بالضبط.. فالدين نظام يتبع لقانون أخلاقي قبل كل شيء.. وهذا قلما تجدينه في الغرب لذلك تكثر عندهم حالات الانتحار والقتل والاغتصاب والمخدرات ومثل تلك الجرائم لا تتبع إلا لأهواء شخصية مهزوزة غير مبنية على أسس سليمة تمنعه عن ارتكاب تلك الجرائم فالرغبات الحيوانية لا تعترف بالأخلاق ثم أردفت قائلة..

هم يمارسون احترام القوانين والآداب العامة.. ويحافظون على نظافة مدنهم.. ولا يعبثون بالأملاك العامة.. ومنتظمين في شؤونهم ومنضبطين بالوقت والمواعيد وبارعين بالصناعات والتكنولوجيا والفنون والعلوم.. لكن مقابل ذلك هم ضاربون بعرض الحائط كلمة أخلاق..

أنا بالطبع لست ضد أخذ علومهم وتقليدهم بالصناعات ومجاراتهم بالثقافة والفنون وأشياء كثيرة رائعة.. لكني ضدنا حين ننسى أصول ديننا وننزعه من أنفسنا بحجة مجاراة الغرب.. نحن شعوب نفتقر لاحترام القوانين بعكس الأوروبيين.. وسبب عدم احترامنا لها هو أنظمة استبدادية رأت أن انتشار الفوضى هو الطريق الأمثل لإلغاء ثبوتية الدين من عقول شعوبهم وكي يبقوا تابعين لهم.. الدين حارس للأخلاق ونزعه يتم عن طريق الفساد والرشاوي والدعارة والبطالة وكل ما حرمه الدين.. هل رأيت لماذا ورغم انتشار فوضى الأخلاق في أوروبا إلا أنهم سبقونا بعدة مجالات؟

لأنهم احترموا القوانين رغم إلحادهم بينما تخلينا نحن عن احترام القانون والأخلاق والدين في آن معاً.

أكملت نهال قائلة بنبرة محبة..

هنالك حدود يجب علينا أن لا نتجاوزها.. فنحن أحياناً نتخطى حدوداً غير مدركين ناقوس الخطر الذي يدق محذراً لنا ما لا ندركه بعقولنا وربما رأيناه، وقد وضعنا غشاوة على أعيننا كي لا نرى ما هو الصحيح.. لذا يجب عليك أن تكوني حارسة على حدود إنسانيتك، كي لا تفقد حكمتك نظرتها للأشياء.. إنسانية ما كانت لتوجد لولا قانون الأخلاق الديني.

قالت سارة..

بكلامك هذا أراك ألغيت الحداثة برمتها..

أجابت نهال.

الحداثة التي يتحدثون عنها هي سذاجة برأيي ووهم، وتخلف

ومصطلح الحداثة هو إقرار بأنهم لا يملكون ثوابت دينية تقوم على أساسها الأخلاق، ولذلك انعدمت الفضيلة عند الغالبية والتي هي من أساسات ديننا وعاداتنا وتقاليدنا التي بنيت على أساس ديني سليم غير مشوه.

أومأت سارة برأسها بنعم ثم سألت نهال.. والديموقراطية في الغرب هل ستقولين عنها تخلفاً أيضا؟

ابتسمت نهال قائلة..

وهل من خلق الديموقراطية هم الغرب بنظرك؟

حملقت سارة بوجه نهال مستفسرة.... ماذا إذن؟

أجابت نهال..

أوليست الديموقراطية هي الحوار الذي تنبثق عنه حلول المشاكل؟

طبعاً...

أوليس الحوار والأخذ بالآراء يندرج تحت مسمى الشورى؟

صمتت للحظات وأومأت برأسها قائلة.

بالتأكيد.

أوليس أول من ذكر الشورى هو القرآن حين قال.. وشاورهم في الأمر.. وآية أخرى تقول وأمرهم شورى بينهم.. وغيرها؟

صدقت.

تنهدت نهال بمرارة قائلة..

لقد تم التشديد على الناس حتى كره أكثرهم هذا الدين من المسلمين أنفسهم.. وعالمنا الإسلامي يشكو أكثر ما يشكوه هو تبعيته للغرب.. فقراراتهم ليست بأيديهم.. وخيراتهم ليست ملكاً للشعب بل لأنفسهم وللغرب.. الديموقراطية تعني الشورى والشورى تعني حل المشاكل بالحوار.. والحوار الحر ينتج عنه الاستقلالية بالقرارات السياسية والاجتماعية والاقتصادية وهذا

مايفتقر له العالم الإسلامي التابع لأنظمة خانعة للغرب يتوجهون بحسب ماتوجههم رياح البوصلة الغربية.

ترددت قليلاً سارة قبل أن تسأل نهال..

ألا يضايقك حجابك؟ أقصد ألا تجدين نفسك محرجة حين ينظر الآخرين إليك نظرات اشمئزاز؟

ابتسمت نهال ساخرة بمرارة وأجابت.

مع الأسف فالشرقيون هم من يفعل ذلك لا الأوربيون الذين يحترمون خصوصية الآخر.. ثم من قال لك أن غطاء رأسي يتنافى مع حرياتي التي لا تعني إلغاء فضيلتي.. فمثلاً حين قدمت أوراق طلب للعمل في رعاية المسنين كنت محجبة وجاء الرد بالموافقة.. هم ينظرون إليك من خلال ما تملكينه من مهارات.. أنا لم أقدم طلباً لوكالة أزياء أنا قدمت شهاداتي وخبراتي وأبدعت فيما بعد بالمجال الذي اخترته وكنت أقوم بمساعدة المسنين لأسباب إنسانية أكثر منها مادية، ومع ذلك هم كافأوني حين رأوني أعمل بحب لا بغاية مصلحة مادية.. وراتبي الشهري يكاد يكفيني حتى الربع الأول من الشهر الذي يليه.. أقرأ.. وأرتاد الصالات الرياضية وأتعرف على أصدقاء جدد نخرج معاً للتسلية بأيام العطل الأسبوعية.. ومؤخراً قمت بالتسجيل في أحد المعاهد لتعليم اللغة الفرنسية.. وأفكر أيضاً في قضاء إجازتي السنوية بإحدى الدول الآسيوية مع ثلة من صديقات عرب وأجانب.

كيف تجدين وقتاً لكل ذلك؟

بالتنظيم وعدم الفوضى بتحديد الهدف لما تصبين إليه وتحديد ماذا تريدينه بالضبط.. كل هؤلاء يحددهم تحديد أهدافك وتنظيمك لوقتك سيتكفل بترتيب جميع الأمور.

مضت دقائق صمت قبل أن تتوجه سارة بسؤال لنهال.. لكن دموعها غالبتها وقالت وهي تجهش بالبكاء..

كيف يمكنني إنقاذ نفسي وابني؟

عانقتها سارة قائلة وهي تطبطب عليها

لقد قمت بإنقاذها حين وجهت إلى ضميرك هذا السؤال.. ربما لم نعرف كيف نحب بعضنا البعض في وطننا.. وربما هنا وجدنا المكان المناسب حين لم نضطر للكذب على الآخرين بأننا أفضل البشر.

هل سأستطيع العيش مع رجل دون أن أعترف له بماض بشع.

انسي ماضيكِ لكن لا تنسي تلافي أخطائه في المستقبل

هل ستنسى ذاكرة طفلي أشياء حصلت أمامه أم أنها ستستمر بنسخها .

الذاكرة تمحو لكنها لا تنسى.. تمحو الأخطاء بأعمال جيدة تطغى على سيئات مافعلناه.

هل سأكون قادرة؟

هل تمانع امرأة بأن تكون جميلة.

ستكون غبية.

هل ستبحثين عن عمل؟

بل جدي لي عملاً معك في دار المسنين..

امسحي دموعك ياصديقتي ولنتشارك معاً كأبناء وطن واحد عشنا القهر نفسه والجرح ذاته.. ولنتساعد معاً على بناء أنفسنا.. وليكبر أطفالنا في مناخ يحترم قوانين الآخرين دون أن ينسى دينه وعاداته وتقاليده.

شكر

أشكر تلك الغربة التي نهلت خناجرها من جسد أيامي، ومنحتني الفرصة لتقديم كلماتي الأولى كوليد يحاول تفسير ما يحصل، وما سيحصل بايماءات يفهمها كل من يقرأ تعابيره الغامضة أحيانا.

أشكر ابنتي روجين التي حملت أربع جبال من الصبر والصمت.. أربع سنوات وما زالت تحمل هموم غربتي عنها محاولة لصق ابتسامة فوق شفاهها المرتجفة بغصة البكاء كلما تحدثنا عبر شاشة تمنعني من الاستمتاع بعناقها وضمها ومحاورتها، دون قطع الاتصال أحيانا لظروف تقنية تسخر هي الأخرى مني وكأنها تقول لي... أليست هذه ابنتك التي أقسمت ذات يوم ووعدت بأنك لن تغيبي عنها الا حين تزفيها لعريسها....؟؟؟ ويوشوش الزمن في أذني هامسا كأفعى.... لا تعاندي القدر يا امرأة قدرها الوداع أينما حلت.

أشكر صديقي وحبيبي وزوجي عمار حريب الذي أعاد جزءا كبيرا من السلام لداخلي الذي أفقدتني إياه الحرب في بلدي.. أشكره لأنه سخر من المجتمع الذكوري وارتقى إلى مرتبة الرجال الذين يجاهدون لاقتلاع جذور الظلم والقهر والعبثية، في زمن بات القهر فيه هو سيد الموقف.. شكرا عمار لأنك أعدت لي ترتيب أبجدية ذاتي التي تبعثرت حروفها زمنا على أرصفة الغربة والوجع... شكرا لأنك لململت ذلك الشوق واللهفة، وكنت أنت الحب في زمن الحرب.. شكرا لأنك رميت وجعي وذكرياتي وانتحابي على الماضي، وصرخت في وجهي.. كفانا تشويها لذاتنا.. وناولتني القلم.. وكانت البداية.



استيقظت اللبؤة التي كانت تتمطى بداخلي.. انقضضت عليه غارسة بقايا الزجاجة المدببة رؤوسها في قلب ذلك الوغد.. أنا لم أقتله وحده.. بل قتلت الخوف الذي سكنني.. غرست الزجاجة في قلب رجل تجسد بشخصه الخوف الذي أفزعني..

أنا الآن سيدة خوفك.. وها أنت ذئب مريض سيموت بعد قليل.. ذئب لم يعد ذكاؤه ينفعه بعدما ماتت حيله.. لماذا تعيش وقد استبحت دم أحلامي على عتبات انتظارك كل ليلة وأنا مقبلة نحوك.. وبدلاً من أن تضمني.. كنت تدفعني باشمئزاز وتدخل الحمام تطهر جسدك بعد ليلة خيانة معتادة.. وكان ينسكب علي ماء الذل المغلي بالوجع والألم وحقدي عليك..

دار حنين بوظو للنشر
لندن، المملكة المتحدة

HANEEN BOUZO PUBLISHING LLP
London, United Kingdom, Partnership No. OC419541